

AMERICAN UNIVERSITY

LIBRARY

OF BEIRUT

N. MAKHOL
BINDERY

1 2 AUG 1972

Tel. 260458

ثورة الأدب

بقلم
محمد بن هبيل



[جميع الحقوق محفوظة]

الإهداء

إلى الشباب

رجاء الغد، وأمل المستقبل
أهدي هذا الكتاب

هيك

للمؤلف

١٩٤٤	الطبعة الأولى	...	الفاروق عمر	
١٩٤٢	»	...	الصديق أبو بكر	
١٩٣٧	»	...	في منزل الوحي	
١٩٣٥	»	...	حياة محمد	
١٩٣١	»	...	ولدى	✓
١٩٢٩	»	...	تراجم	✓
١٩٢٧	»	...	عشرة أيام في السودان	
١٩٢٥	»	...	في أوقات الفراغ	✓
١٩٢٣	»	}	جان جاك روسو	
١٩٢١	»			
١٩١٤	»	...	زينب	✓
١٩١٢	»	...	دين مصر العام — بالفرنسية	
	تحت الطبع	...	دراسات إسلامية	

تقديم

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه إلا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين : الأولى وحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعاً . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة ، وبعضها أُلِف أكثر من جزء من عدة فصول نشرت . وهذه الأجزاء جميعاً تتسق من حيث الفكرة وتؤدي إلى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب إذن جديد قديم . وأحسب طابع الجدة فيه أغلب ؛ لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن بارزة في أي من الفصول التي سبقت إلى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له « ثورة الأدب » عنواناً بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه « نحو الأدب القومي » ؛ لأن فصوله الأولى جميعاً لا تتحدث عن الأدب القومي ، وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الأخير في شؤون الكتابة والأدب ، وتصف المجهود المتصل الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الأدب العربي الجديد . والواقع أن هذا الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العراقية في مصر ، ومنذ بدأ هذا الشعور

القومي يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من حظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق التعليم ، لتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد كان هذا العمل وما يزال شاقا . فأي لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟ ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها ؛ لأن لكل إقليم من الأقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الإقليم الذي يجاوره ، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين لغة الإقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف لغات الأقاليم التي تتكلم العربية يجعل من الحال وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة . ولغات الأقاليم لم يدوّن لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع نثار ومجد . فلا بد إذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور . لكن هذا الجمهور لا يفهم عنك إذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون . ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم ، فكيف ترتفع بالجمهور إلى حسن إدراك لغة القرآن ؟ وكيف تقرب اللغة العربية إلى إدراك الجمهور ؟ . . .

من الإجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر . وفي خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة صوراً من الأدب مختلفة في النثر والشعر ويدرّسها بعض المستشرقين اليوم ، وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشغل بالأدب ، معنىً بتاريخ الكتابة العربية في العصر الأخير .

وكما أن الثورة العراقية لم تنته إلى اليوم لأنها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم تنته ثورة الأدب بعد إلى غاية . وكما أدت الثورة العراقية إلى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالاً أجه بالثورة السياسية إلى ناحية جديدة ، كذلك أجه هذا الاحتلال بثورة الأدب إلى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الأولى من الثورة ، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ، ولم يبق بعدها محل لبث أو جدل ، ولم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام أساساً للأدب ، وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الأدب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة ، وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة .

كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة ، كما كانت تمس في رفق صور الأدب وما يصح أن تكون عليه . وإلى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم ، وكان السجع والإغراب في اختيار الألفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الأدب الغربي يومئذ جديراً بأن يسمى الأدب الكبير في النثر والشعر . فقد كان الأدب القصصي قد بلغ قمة مجده ، وكان كبار الشعراء قد أقاموا في لون العصر ما يقف إلى جانب الإلياذة والإنيادة في الأدب اليوناني ، وإلى جانب شعر فرجيل من أدب الرومان وكان كثيرون من شباننا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم في أوروبا يومئذ سواء منهم من أوفدتهم الجامعة ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم العالية ، قد فتنوا أكبر فتنه بهذا الأدب الغربي الكبير . فلما آن لهم أن يعودوا ، وكانت الحرب الكبرى قد أعلنت أو قد انتهت ، كان هذا الأدب الغربي الكبير في أوروبا قد آن

له أن يستريح بسبب انصراف النفوس في الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف إلى أن النفوس شعرت بعد الحرب بفرغ هائل فيها ، كما شعرت في الوقت نفسه باستهتار بالحياة أدى بها إلى التهلكة عليها . وماذا تريد من الإنسانية خارجة من أفزع مجزرة شهدتها التاريخ بعد أن ظلت خلالها أربع سنوات تباعاً ترى الألوف ومئات الألوف والملايين يحصدهم الموت حصداً وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة في نظرها ولهذا القصد في الحياة تهل منها على مهل إذا كنا نجعل كل الجهل ما سنصير إليه في غدنا ، وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه ؟ أم سنصبح لاشيء كما أصبح ملايين غيرنا ؟ إذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ، ولنترام بكلنا في أحضان المسرات تنال منها في أقصر وقت أكبر حظ مادمننا غير مؤقنين بأننا سنأخذ حظنا منها كاملاً إذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الإنسانية . وكان من أثر هذه الحال النفسية في الأدب أن اضطر كثير من الكتاب إلى إرضائها وإمتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لأنها تقصد إلى إرضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الأدب هو الذي تهافتت الجماهير عليه ، لا قدرأ منها إياه ولا إعجاباً منها به ، بل لأنه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها إضرار بها ولكنها تهافتت عليها لأنها تسد حاجتها إلى نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذي ينبغي لها ما لا تدرى — المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوروبا قبيل الحرب أو خلالها أو في أعقابها ممتلئة صدورهم إعجاباً بالأدب الكبير الذى قرءوا والذى شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على الطرائق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم ترمصر مثلهما من زمن غير قليل إلا من أفراد قلائل موهوبين كان لهم أثرهم فى توجيه التفكير المصرى ، وفى مقدمتهم المرحومان الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، كما كان من بينهم بعض أساتذتنا ممن لا يزال أثرهم فى هذه الناحية متصلاً . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا إلى الميدان ونشاطهم أن البعوث إلى أوروبا لإتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الأولى إلا فى سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعة المصرية ، وقد تأثرتها فى ذلك وزارة المعارف فى السنة التالية . أما ما قبل ذلك فقل من كان يسافر إلى أوروبا للقيام بدراسات عليا متصلة . والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات فى فرنسا وانكلترا كان أكثرهم ممن لم يلقى نجاحاً فى مصر فلم يستطع متابعة دراساته فى مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها وأوفدت الجامعة من أوفدت واقتدت بها وزارة المعارف ، انتقلت العدوى إلى بعض الأفراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم ، وعادوا بعد إتمامهم إياه فنقلوا ميدان القديم والجديد فى الأدب ووجهوه وجهة أخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب طابعاً جديداً نقلها من مجرد المحاكاة إلى بروز الذاتية . هذا الميدان الجديد الذى انتقلت للمعركة إليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل فى نظر هؤلاء المجددين

فلا بد من صور جديدة هي صور الأدب القومي الكبير . هي القصة والأقصوصة ، وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي . وقد أعان ثورة الأدب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في أثر الحرب الكبرى ، إذ بدأت في ٩ من مارس سنة ١٩١٩ . ألم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟ ! فلتكن مظاهر الفن والأدب مصوبة عندهم في قوالب غربية لتكون آية للناس جميعاً على تقدمهم وعلى أنهم يسابقون الغرب إلى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الأدب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها ، ولم تكن أقل لفتاً لنظر الغرب من الحركات السياسية التي دمجها الطابع القومي والتي امتدت إلى بلاد الشرق جميعاً . ومهما يكن من غمر الحوادث لزعماء ثورة الأدب في ميادين السياسة فإن جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تراقب وتحلل . ذلك بأن الأدب واتجاهه في أية أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها ، وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبهجها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضى بها القوات المسلحة على الثورات السياسية . وإنما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجهها . ويخيل إلى أن مجهوداً كبيراً قد أنفق في هذا السبيل كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الإصلاح الديني التي بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده ، والتي كانت جديرة بأن تؤتي أعظم الثمرات . مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن ثورة التجديد في الأدب قد ظفرت

بالقديم وقد جرت إلى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون إلى
المجدين مغايتها . لكن ما أنفق من الجهود التي هيأت الفوز فتح
عيون أصحاب الجديد واسعة ، وجعلهم يتساءلون إلى أين نذهب وإلى ماذا
من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبيعياً أن يقفوا هذه الوقفة ، وأن يطرحوا هذا
السؤال . فالحضارة الإنسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن . ونحن
في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ، ثم أخضعتنا
الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول
قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب الوجهة
التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عصورهما
من صور الفن والأدب . ثم جعلت أوروبا تستقر بحضارتها رويداً
رويداً لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع
عشر ، ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة
وإلى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ، ثم إلى العلم الوضعي
والفلسفة الواقعية وإلى دين الإنسانية في القرن التاسع عشر ،
وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين
اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين
المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة
وهدم في أحيان كثيرة ؛ لكن الحضارة الغربية لم تنقطع ، ولا تستطيع
أن تقطع صلتها بهذين العاملين اللذين أنشأها . والأدب الغربي المعبر
عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ
في الأدب الإنكليزي أو الفرنسي أو الألماني أو أي ما شئت من آداب

الأمم الأوربية وأنت دائماً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحاً . فماذا
 عسانا نحن نصنع ؟ وإلى أى أدب وإلى أية فلسفة فى الماضى القريب
 والماضى البعيد يجب أن ننسب إذا أردنا به أن يكون مظهر الحضارة ما ؟
 وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة ، فلم يتردد أكثرهم
 فى الإجابة بأن ماضيهم هو الأدب الطبيعى لحضارتهم ولأدبهم . أما القلائل
 الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية فى كل مظاهرها وصورها على نحو
 ما فعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفاً زاده ضعفاً ما قدمنا
 من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الأدب الكبير . من هنا بدأت
 الصلة بين أنصار القديم وأنصار الجديد ، فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث
 السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة ؛ وبدأ أولئك يقرون هذا
 ويعتبرون فى ثمرات الجهود التى يبذلها أنصار الحديث فى بعث الأدب
 الجاهلى وأدب عصور الإسلام المختلفة بحثاً علمياً دقيق التحقيق خطوة
 موفقة فى سبيل إعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة .

ولكن ! . . ما هى هذه الحضارة ؟ أعربية هى أم إسلامية ؟
 سؤال وجه ، وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلاً بتوجيهه ، حتى لقد
 رأينا أخيراً طلاباً وطالبات غربيين يقدون إلى مصر وإلى مختلف جهات
 الشرق العربى يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل
 من يتوسمون فيهم أنهم رجال الأدب الحديث ، ويلتمسون إليهم أن
 يدلوهم على عقيدتهم العلمية فى الأمر . وأشعر بأننى فى حل من القول
 بأن هذه الطليعة الغربية متجهة إلى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات
 ضيالة تسوِّغ الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمى وحده . وسواء
 صح اعتقادى هذا أم لم يصح ، وسواء أكان المقصود إثارة الخلاف

بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية، أم كان المقصود به ألا تقرن إلى الإسلام حضارة ما، أو لم يكن المقصود هذا ولا ذاك وإنما المقصود البحث التاريخي النزهي - سواء أكان هذا أم ذاك، فإننا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتماً بعنصر من الإيمان. وقد خيل إلى العلماء زمناً أن العلم سيغذي النفوس بهذا الإيمان ليقم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو أن يقيمه، أو دين الإنسانية على ما وضعه أوجست كومت. لكن ماتم من محاولات في هذه السبيل لم ينبجح في أن يقدم للجمهور الغربي ما يرضى تطلعه إلى رجاء أو أمل في الطمأنينة والسعادة. ومن ثم انقلب هذا المجهود إلى الناحية المادية والاقتصادية، وجعل منها كل رجائه في الحياة؛ فكان من ثمرة ذلك ما تعاني الإنسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا في إغراء الجمهور بالتشبث بهذا الأمل وهذا الرجاء. فالنفس بحاجة إلى رخاء في غذائها الفكري والعاطفي كحاجة الجسم إلى شيء من النعيم في حياته المادية. ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفس في أديان الشرق وصور الإيمان فيه. والأدب بوصفه مظهراً للحضارة لا غنى له عن تجلية جانب الإيمان في النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف أثره في الحياة. وجانب الإيمان في بلاد الشرق العربي قوى أيا كان الدين الذي يدين هؤلاء الشرقيون به. وقد كان الإسلام وما زال دين أهل هذا الشرق العربي إلا الأقلين منهم، فلا يمكن أن يؤدي الأدب رسالته إذا أهمل هذا الجانب القوي من جانب حياة الشرق العربي، وإذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم

مع التفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة .

لم أغل إذن حين استقر رأيي على أن أتخذ « ثورة الأدب » عنواناً لهذا الكتاب . فالأدب في ثورة متصلة بالفعل منذ نصف القرن الأخير ، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة في مسيرها أيضاً ، وتعانى من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعانى زميلتها . لكننى لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويراً كاملاً . وأحسب تصويرها في دقة ، ما دام اتصالها ، غير ممكن ، وهو بعد ليس من عمل رجل مثلى لم ينقطع له ، وإنما ألم بما ألم به منه في أوقات فراغه . وقد تكون الفصول التى اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الأعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقاً على نحو ما يفعل المشاهد المراقب .

وما دمت قد أشرت إلى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لى عن القول بأن عوامل السياسة التى حاولت صرف التيار السياسى فى نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة فى شأن الأدب والكتابة . ولقد أشرت فى هذا التقديم إلى ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الأدبية وحاولت من غير نجاح كبير إفساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفى أن أذكر ما كان من سعى متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة ، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضى ، ومن إظهار هذا الماضى فى صورة زرية غير جديرة بالاعتداد

بها أو باستلهاهما . وقد وصفت في الفصل الذى يلى هذا التقديم صورة ما يصيب الأدب فى عصور الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق أكثر مما صحبها لو أن الإيمان بالحضارة الغربية بقى قويا كما كان ، ولو أن الأدب الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما أصاب الأدب الغربى فى أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة إليه نهضة مصر والشرق نهضة قوية ، جعل الجهود التى أنفقت لاتؤتى ما أريد منها من ثمرات ، وإن جعلها تحول بين ثورة الأدب والاستقرار إلى ناحية تطمئن إليها . وأكبر اعتقادى أن هذه الثورة ستظل متصلة زمنا طويلا . فنحن ما نزال من بعد فى بدائها . وحسن توجيهها فى حاجة إلى جهود شاقة جبارة وإلى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو إلى استقراره . وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم فى الشرق العربى كله إلا عدد قليل . وبناء صرح الأدب على الصورة التى تدور فى نفوسنا ونرجو أن تراها أعيننا فى حاجة إلى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التى تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة . فرجاء استقرار ثورة الأدب فى زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو ، وإن كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن أختم هذا التقديم وأخلى بين القارئ وفصول الكتاب . ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله أو تدعوه إلى الشاؤب . ولعله أن يرى - إذا استطاع أن يتم قراءتها - أنى لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت فى جمعها وتنسيقها ، ثم نفذت الفكرة وأظهرت الملأ على « ثورة الأدب » .

الطفاة وهربة القلم

في عصور الظلمة التي تمر بالآم آنا بعد آن يعتمد الباطشون البغاة إلى تقييد حرية القول والكتابة . وفي سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الأقلام حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة : فمن إرهاب ، إلى سجن ، إلى نفي وتشريد . وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم ، محاررة عيونهم ، مفتحة خياشيمهم ، أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهبج فيها كل غرائزها الوحشية . ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا إذا اطعمأوا إلى أنهم حطموا تلك الأقلام إلى غير عودة إلى الكتابة ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالاً لا قومة لهم من بعده .

هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لا تهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالقأ ما بلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها ما يحول بخاطره وما يعليه عليه خياله أو يتسقى لمنطقه . وكل ما يسطره القلم إنما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء ، فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها إلى حيث شاء . والأمر كذلك سواء أكانت هذه الورقة جريدة أو مجلة أو كتاباً من أي صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه الورقة حولها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد ،

ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق ، وما هو أكبر من ذلك من ألوان الإرهاب والإرهاق ؟ وهل انتصر الظالمون يوماً على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر دائماً آخر الأمر وباء مطاردوه بالحياة والخذلان ، وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكرى وأتسع الأثر ؟

أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر . حرية القلم هي المظهر الأسمى لحرية الإنسان في أسمى صورها ومظاهرها . وحرية القلم إنما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله . رب تؤتية الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء مالا سبيل إليه إلا في جو من الحرية المطلقة ، وتدفعه ليجعل هذه الحرية حوله خلقاً ولو ألقى به هو في غيابات السجون ، بل تدفع ذكره لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن ما زال نرى ثمرات الأقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تهز العالم حتى اليوم هزاً ، وتنشئ فيه إلى اليوم وإلى الأبد ألواناً من الخلق جديدة . ذلك بأن القلم هو الأداة لتصوير النفس الإنسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الإنسانية التي تلتبس هذه النواحي المضيئة من حياة الكون هي دائماً نفس قوية لا تفقد في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها ، نفس تخلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذي تريد إيضاحه ، أو الحرية التي تريد نشرها ، أو الجمال الذي تعالج تصويره ، أو الخير الذي تعمل لبثه وإذاعته . فإذا اهتدت إلى ما ابتغت نفشت منه على القلم ما يسطره على الورق ، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محبوباً عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا

الضياء هو الذى يبعث لهم فى الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم ، وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فإن لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً .

هذه القوة التى تنبعث من القلم على صحف الورق لتنقلها إلى الإنسان هى أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان . هى قوة الإيمان القائم بالنفس القوية التى متى امتلأت إيماناً فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الإنسانية التى تصل بين الإنسان وقوى الكون العليا ، وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التى يستند إليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى أن تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما فى الحديد والنار من بأس وهول إلى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون إلى أبدى ، هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى هى إليه ، هي مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شئ فى الوجود . بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوى الروح وسلطانها لئلا يمحرق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعاً إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطئ فى سيرها ! وكما أن حرية القلم هى وحى هذه القوى العليا ، فإن الطغيان منشؤه أخس غرائز الإنسان وأكثرها أنانية وانحطاطاً . فتش عن الطغاة فى التاريخ واستمع إلى كل ما يتشدقون به من الأقاويل والدعاوى وما يزعمونه من جهنم الخير لبني الإنسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ،

تجدهم دائماً ينتهون إلى هذه النتيجة : إنما نطغى بينى الانسان لأنهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الخفية هى الكينة دائماً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره ، وهى عبارة مزوقة تستر وراءها أفضع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا . والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم . لضلوا . والطاغية يرى المزيد فى انتشار العلم ضاراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا . والطاغية يعلم الناس كيف ينكرون وكيف يتكلمون ، فإن هم خالفوا تعاليمه ضلوا . والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فإن لم يصادرها ضلوا . والطاغية يستمد الوحي فى هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التى يفرضها على الناس ويريدهم على أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فإن لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار .

هذا الضلال الذى يزعم الطاغية أنه يريد إنقاذ الإنسانية منه وهو إنما يريد بها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تنوع به الإنسانية زمنياً يجم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام ، فيمد للباغى فى أسباب بغيه ، وهو ناشب فى قلب الإنسانية أظافره ما كثف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن ينخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق . وللطاغاة فى تكثيف الظلام الذى ينشرونه حولهم أساليب عجب ؛ فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء أضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلاماً . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التى تكلف هاته الطائفة بها إنما هى نشر الترهات وترويج الأباطيل ومحاربة العلم الصحيح ، بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ما شاء لهم خيالهم المجرم .

ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب ، وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافا لسادتهم ، وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة إلى الحق وإلى الحرية . هؤلاء ليسوا كتابا وإنما هم كالكلاب تبصص بأذنانها لمن يلقي إليها بطعام أو بعظمة من العظام وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ؛ لأن الكتاب تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة .

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا يخلقون ما شاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء أضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذى يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فإذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه ، فإله الويل ، وله النكال ، وله عذاب السعير .

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التى يخلقها الطاغية ليعيش فيها ، أنك ترى كل ألوان التكريم والإعزاز فى عهده تذهب إلى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن إليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة فى حياتهم أن تمتد كرامتهم إلى ما بعد موتهم . أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . فى ذلك اليوم ينال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكروهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس ثمة ما ينقض من هذه الحجة حرفا .

وإذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فإن المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الإنسانية بلاء دائم وشر مستطير، يفسدون الآداب والأخلاق، ويعلمون الناس الكذب والنفاق، وينزلون بأدب الكتابة إلى أحط درجاته، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وإن شاب الإعزاز احتقار، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والأدب واللغة أى أذى . بل إنك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الإكبار من بطانة الطاغية ؛ لأنهم يعتقدون في الزلفى إليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق .

على أن الظلم وإن تكاثفت ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان من أثره دائماً أن أثار شرارة الحرية والحق هتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تراكم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم إذا بالمطر يستنفذ السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ما تلبث هذه الظلم المتكاثفة في جو الطغيان أن تبعث إلى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع في صيحة قوية خالصة ، فإذا الظلم تضطرب قوائمه ، وإذا الطاغية يكفهر وجهه ، وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقاً على صاحب الصوت وعلى أنفسهم ، ثم إذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع ، وإذا القلوب التي وجلت من قبل رعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة ، ثم إذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة ، ثم إذا النور نور الحرية والحق يعم الأرجاء ، وإذا الظلم والمظلوم والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى القيوم .

في العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكن نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً ، وليكن عالماً أو أديباً أو داعياً دينياً ، فهو يرسل بصيحته الضياء إلى النفوس المشتاقة إلى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة إلى مصدرها ويقدرّون خطرها . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخمّد صوته ولا يمتد إلى ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا في حقب التاريخ جميعاً أن يخفّقوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والإرهاب التي كان ينشرها حكّام ذلك العصر ، ويعلى في الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم في روسيا قائماً على الاستبداد المطلق ، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد إلى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه ؛ لأن ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان ، ولأن الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعاني يزيد في النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً .

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الأمثال . وأرباب الأقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الأسباب في ارتفاع كلمتهم وذبوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد إيمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان ، وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ؛ فإذا جاءت إلى الأذهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة . ذلك بأن الذين جاهدوا خير الإنسانية قد نسوا

أنفسهم في الإنسانية فأحلتهم الإنسانية مكان الكرامة والإعزاز من قلبها . فأما الطغاة والمستبدون فلا يذكرون إلا أنفسهم ، ولا يفكرون إلا في أشخاصهم ، ويريدون من الإنسانية جميعاً أن تكون محببة إليهم لما تمليه أنانيتهم ، فإن هي لم تفعل أكرهت على ذلك إكراها واضطرت إلى أن تخضع له ذليلة صاغرة . وقد تصغر الإنسانية أحياناً أمام إنسان ينزل بها كما ينزل الوباء أو كما يدمرها الزلزال . لكن هذا الوباء والزلزال عارض لا بقاء له ، فأما الإنسانية فباقية خالدة .

وهي في خلودها تتمثل خير تمثيل في رب القلم . لذلك يمقت الطغاة هذا الذي يمثل الإنسانية ويدعو لحريتها وخيرها ويفتح أمامها باب الحق والجمال . ولذلك تكرم الإنسانية هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في سبيل سعادتها وهدايتها ، وتنصرهم في حياتهم وبعد موتهم على الأنانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الإنسانية وفوق الحياة ، فزدرهم الإنسانية وتلفظهم الحياة .

ولعل الأدب في مختلف صوره خير ما تتجلى فيه مواهب أرباب القلم . حقا أن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة في حاجة إلى رب قلم قد ير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته إليها قوة تكفل دوام تقدمها ، لدوام حياتها . لكن الأدب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعا . هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الإنسانية . والأديب الجدير حقاً باسم الأديب هو الذي يستصفي هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه . هو الذي ينبت من حقول العلم والفلسفة وما إليهما زهور الأدب ، والذي يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الإنساني الذي سارت الإنسانية

وما تزال ولن تزال تسير على هدها متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال . وهذا التوجه نحو الكمال هو الذي يرجّح قلوب العتاة والطغاة ، وهو الذي يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا . فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية إذا لم تكن هذه الحرية . لكن حربهم لها كانت دائماً حافزة إياها على القيام برسالتها العليا ، وإن لقي أصحابها في سبيل إقرار هذه الرسالة ما لقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب . ولذلك كان النصر دائماً لرسالة الأدب ، وكان الفوز الأخير دائماً لحرية القلم .

ثقافة الأديب

هل الأدب العربي قديمه وحديثه يكفي وحده لتكوين الأديب ؟
هذا سؤال طرح وكان موضع بحث ومناظرة . ويجب قبل الجواب عليه أن نطرح سؤالاً آخر وأن نجيب عليه : فما الأدب ومن الأديب ؟ وإذا نحن وقفنا للإجابة على هذا السؤال واتفق رأينا عليه لم يبق لخلاف ولا لمناظرة محل .

وعندى أن الأدب فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود من حق وجميل بوساطة الكلام . والأديب هو الذى يؤدي هذه الرسالة . فكل ما ينتجه فن الأدب الصحيح فى أية لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية ، وكل أديب يكتب فى أى باب من الأبواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها . والأدب العربى لا يخرج عن أدب سائر اللغات فى هذا التعريف .

ماهى وسائل عرفان ما فى الحياة من حق وجميل ؟ ما نحسب هذا محلاً لإثارة أى خلاف . فوسائل هذا العرفان العلم والفلسفة . العلم هو الوسيلة الأولى والأساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها . والفلسفة هى الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك الحياة والوجود وما فىهما من حق وجميل . كذلك كانت الفلسفة وكان العلم فى كل العصور ، وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند العرب كما هى عند سائر الأمم . الأدب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة وكالثمرة الناضجة وكالخشيرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ، ومن الجذور

التي نبتت عليها هذه الشجرة والتي هي بمثابة العلم من الفلسفة .
 فلكي تكون حديقة الأدب جميلة ، ولكي يكشف الأديب للناس عما في
 الحياة من حق وجميل ، وليؤدي الرسالة العظيمة الملقاة على أدياء العصور
 جميعاً ، يجب أن يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم .
 وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردتين كان أقدر على أداء الرسالة
 وكان أديباً حقاً .

ولهذا كان العرب يقولون : إن الأدب هو الأخذ من كل شيء
 بطرف . وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الأديب الوقوف عليها
 لا يقتصرون على ذكر علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة ، بل كانوا
 يضيفون إليها علوماً كثيرة من سير العرب وأخبارهم أي من التاريخ ،
 ومن مواقع بلاد العرب أي من الجغرافيا ، وهلم جرا .

فن هذه غايته وذلك مداه يتسع لصور لا تتسع لها الفلسفة ولا يتسع
 لها العلم بمعناه الضيق . ففي الحياة وفي الوجود من صور الحق وألوان
 الجمال الشيء الكثير . وقل أن تيسر الأجيال للإنسانية الرسول القوي
 الصادق الذي يستطيع خلال السنوات القصيرة التي يحياها الإنسان ،
 وإن امتد به العمر ، أن يبلغ هذه الإنسانية رسالة الحق والجمال كاملة .
 لذلك كان الأديباء الخلقون حقاً بهذا الاسم هم الملهمون الفحول الذين
 يطبع كل منهم عصره في تاريخ الإنسانية ويبقى فلذة خالدة برغم موت
 صاحبها من هذا التراث العظيم التي تتوارثه الإنسانية جيلاً بعد جيل .
 هؤلاء الأديباء إنما يبلغون الإنسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعاً على نحو
 ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم . وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على
 ما خلف الأديباء العظام ، فالأديباء الكبار ، فالأديباء ، فالتأديبون ،

رأيت ضياء الحق والجمال ينجو رويداً رويداً حتى يصل إلى الأديب أو المتأدب الزائف الذى لا حياة ولا نور فيما يكتب ؛ إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل ، وإنما هى ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها إلى معنى خاص شأنها شأن تلك البذلة التى توضع فى « فترينة » التاجر على مثال خشبي سوى وجهه بالألوان ، لا يقصد بهذه البذلة إلى الاستعانة على الحياة ولكن يقصد منها إلى عرضها بضاعة فى انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة ، وأن يبعث إليها شيئاً من هذه الحياة .

كتب فيشته الفيلسوف الألمانى المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال : « إنه إنما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ، ليرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا إياها . وفى كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا فى لهجة من لهجات الكلام جديدة . ورسالة الكاتب هى الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذى يبعث فيه . ويشد فيشته حين يقصد إلى التمييز بين الكاتب الأصيل ، أو الكاتب البطل ، كما يسميه كارليل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال : « فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا ، لكنه لن يكون لذلك كاتباً وإنما هو أفاك مزور لا قدر ولا مقام له » .

والحقيقة التى يذكرها فيشته ، والحق والجمال اللذان نراها غاية الأدب بوصفه فناً جميلاً ، ينكشف للناس من صورها فى كل جيل ما لم يكن معروفاً فى الجيل الذى سبقه ، أو ما يختلف عما كان معروفاً فى الجيل الذى سبقه . وعلى ذلك كان الخلاف فى صور أدب الأجيال المختلفة

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من الأمم الإسلامية ، وأن تقلص ظل الحضارة الإسلامية عن الأندلس ، وأن استقل الفرس ، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الإسلامي في شؤون اللغة العربية . وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات ؛ لأن حياة الأمم العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال . وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة كانت نهضة الغرب في العلم والفلسفة والأدب ، وكان أن استحدثت الغربيون من ذلك الشيء الكثير ، وأدخلوا على آدابهم من ألوانه ما لم يتطلع أهل هذه الأمم العربية الخاضعة للنير التركي إلى الاتصال به . فتدهور التفكير العربي ، وصار الأدب العربي القديم هو وحده الأثر الخالد لهذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي سار العالم في ضوئها وعلى هداها عدة قرون . ولولا ما في اللغة العربية لذاتها من قوة قدسها القرآن الكريم وزادها جلالاً وإعجازاً ، ولولا ما كدست الحضارة الإسلامية من ثروة لم تنفذ ولا سبيل إلى نفاذها ، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والآشورية والهيروغليفية ، ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته ، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الإنساني وكفى .

لكن قوة اللغة العربية وثروة أدبها التي تكونت منذ الإسلام وعظمت الحضارة الإسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة هذا المصائب ، حتى دار التاريخ دورته وآن للغة العربية أن تنهض نهضتها من جديد . وكان طبعياً أن تبدأ النهضة بنشر اللغة وإحياء آدابها القديمة وتعليم

الناس أصول التعبير بها ، ليكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية ، وأن يكون فن الأدب العربي بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيهما من حق وجمال ، حتى تبعث الأقدار الأديب العربي الذي يؤدي لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الأدب . ويرجع الفضل في هذه الخطوة الأولى لشيخ الأزهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد علي باشا إلى أوربا للاتصال بموارد العلم فيها ، ولرجال مدرسة دار العلوم التي أنشأها على باشا مبارك منذ أكثر من نصف قرن للقيام ببث اللغة العربية بعثاً جديداً . على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة إلى انتشار فنون آدابها ، حتى رأوا إلى جانب الفنون القديمة فنوناً في الأدب جديدة ، أحدثها بعث الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة ، لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل ، ورأوا أن هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند إلى فلسفة جديدة في تصويرها أيضاً وإلى علوم اتسعت دأرتها وعظم نطاقها ، وأن لا بد إذن من الاتصال بالعلم والفلسفة في آخر صورها ، ليكون الأدب العربي مؤدياً إلى الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات ، غاية تبليغ الإنسانية ما في الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذي تعيش الإنسانية فيه .

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين من الأزهر وعند رجال دار العلوم بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربي والمتصلين في الوقت نفسه بآداب اللغات الأخرى . وظهر ذلك في حرص الأولين ، وهم ذوو الفضل في الخطوة الأولى من خطى بعث اللغة والآداب العربية القديمة ، على الوقوف على اللغات الأوربية وتعلمها ، وفي

حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها إلى اللغة العربية في صورة عربية صحيحة . وأما من الأمثال على ذلك كثير . فأساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية ، كلهم من ناشئة الأزهر أو دار العلوم أو القضاء الشرعي ، وكلهم قد شعروا بالحاجة ، بعد إتقانهم اللغة العربية ، إلى دراسة لغات أخرى ودراسة آداب أخرى سواء منها ما ترجم إلى العربية وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها . وهؤلاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة : أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام ، هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة — الأزهر — وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ، ليكونوا لأنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال .

مثل آخر أضربه هم هؤلاء المشايخ الذين بدءوا يكتبون في الأدب الحديث مكتفين بمطالعتهم في الآداب العربية ، ثم إذا بهم لم يجدوا منصرفاً عن دفع أنفسهم إياهم لورد آداب اللغات الأخرى . فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بدأ يكتب «النظرات» و«العبرات» متأثراً إلى حد ما بما ترجم من القصص الغربي ، وإن جاهد ليظل في كنف الأدب العربي القديم . لكنه ما فتى أن اندفع إلى الاستعانة بالأدب الغربي ، فاستعان بمن يعرف هذا الأدب ويدله على ما فيه من صور الجمال ، ثم إذا به ينشر على الناس كتبه «ماجندولين» و«في سبيل التاج» وغيرها . والأستاذ الزيات وغير الأستاذ الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربي القديم خالصاً سائغاً لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من صور الأدب ، ولم يجدوا

الوسيلة إلى ذلك إلا عن طريق الأدب الغربى وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكيين فى عصرنا الحاضر .

وهذا طبيعى بعد الذى كان من تقدم العلم وتطور المذاهب الفلسفية ، وبعد الذى كان من إبداع صور الأدب الجديدة فى الغرب . ويطول المقام إذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية والأدبية فى القرن الأخير ، بله القرون الثلاثة التى سبقته . ومن هذه الصور ما لم يكن له وجود قط فى الآداب العربية ، ومنها ما كان له وجود تافه لا غناء لنا اليوم فيه . ونكتفى من صور الأدب هذه بالإشارة إلى القصص والروايات المسرحية . فهذان النوعان لم يكونا معروفين بصورتهم الحاضرة عند العرب ، مع أنهما اليوم يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلها فى متناول القراء جميعاً ، ويجعلها كذلك فى صورة فنية بالغة غاية الجمال . فهل يتسنى لنا إذا نحن اكتفين بالأدب العربى القديم ، أن نبذل فى هذه الأنواع مثلاً أبذل الغرب ، فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من حق وجمال إلى نفوس قراء العربية ، فنؤدى الرسالة الملقاة على عاتق كل كاتب جدير بهذا الاسم ؟

ولست القصص الطويلة والروايات المسرحية هى وحدها ما أبذل مما لم يكن العرب الأقدمون يقدرونه ، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية كالآداب الاشتراكية والشيوعية وآداب المذهب الحر والمذهب الفردى لاسبيل إلى بسط شئ منها لقرائنا إلا إذا وقفنا على ما كتب باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من جهة أخرى . وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة فى الآداب العربية القديمة ، ومما لا بد لنا ، إذا

أردنا أن نقف إلى جانب الأمم الأخرى فيه ، من الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه اطلاقاً واسع النطاق .

وما نحسب أحداً إلا يشعر بالحاجة إلى هذا الاطلاع كما شعر بها أولئك الأساتذة الذين أشرنا إليهم وكما شعر بها غيرهم . فإذا اطلع إنسان استطاع أن يؤدي رسالة الأدب على وجه صحيح ، وكان لذلك أديباً أصيلاً . أما الذين يقفون عند الاطلاع على الأدب العربي فلن يستطيعوا مجاراة هذا العصر مجاراة تمكهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على عاتق الأديب ، وسيظل أدبهم ألبس ألباساً لا تحمل في طياتها سنى المعاني السامية ولا ضياء الحق وبهجة الجمال ، وسيظلون أطفالاً في الأدب . ربما يعجب بعض الناس زخرف قولهم ، لكن هذا الزخرف لن يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية لحياة فيها وإن أتقن صانعها رسم تقاطيعها .

وهذه الحاجة إلى الاطلاع التي يشعر بها كل محب للحقيقة ليس معناها الانصراف عن الأدب العربي قديمه وحديثه . فنحن في حاجة إلى التضلع من هذا الأدب ؛ لأنه هو الأساس الذي نبني عليه ونريد أن نبلغ به الكمال . ولا سبيل إلى هذا الكمال إلا أن نفعل ما يفعله غيرنا من أهل الأمم السابقة اليوم في الحضارة . فإنك ترى قاموس اللغة الفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية أو غير هذه من اللغات يعاد النظر فيه كل عقد من السنين لتحديث معاني الكلمات وهل اتصل بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أو الآداب الحديثة ، وللتنظر في إضافة كلمات جديدة . وكثيرون يعرفون ما دخل في اللغة وفي الأدب الفرنسيين من الألفاظ والعبارات الإنكليزية في هذا الزمن الأخير . فكلمة « جنتمان » و « سبورت » وغيرها قد أضيفت أخيراً إلى القاموس الفرنسي ، كما

أضيف في العصور القديمة إلى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية « كالورد » و « السلسيل » وغيرها . وما دام هذا في طبيعة اللغات وآدابها فلا معدى لنا عن أن نأخذ به ونحذو حذوه إذا أردنا للغة ازدياداً في القوة ، وللأدب تحقيقاً صحيحاً لرسالة الأدب .

قد يقال إن الأدب العربي الحديث يكفي لسد هذا النقص الذي أشرت إليه بما استحدث من صور الأدب العربي التي أبدعت في العصور الأخيرة . ولشد ما وددت أن يكون هذا صحيحاً ؛ فهو لو صح لكان سبباً لفخر كثيرين من أصدقائي الذين أعزهم . ولكني وأصدقائي هؤلاء نشعر بأن في ذلك غروراً لا يليق بالأديب . فما استحدث في الأدب العربي ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ في تلك الهوة التي تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر . وهي محاولات شعر أصدقائي وشعرت أنا بنقصها منذ زمان طويل . فإني لأذكر أن مطالعائي العربية التي تناولت من كتب الأدب العربي القديم الشيء الكثير قد أقنعتني منذ عشرين سنة ماضية ، وكنت ما أزال طالباً بالحقوق ، بأن أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالإنسان إلى أكثر من طفولة الأدب في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فأكبت يومئذ على دراسات في الكتب الإنكليزية فتحت أمامي آفاقاً جديدة غير ما مهدت له دراساتي . فلما سافرت إلى فرنسا بعد نيل إجازة الليسانس ودرست الفرنسية أكبت على آدابها في نواحيها المختلفة ، فإذا آفاق جديدة تتفتح ، وإذا بي أطل على صور من الحق والجمال لم أكن أتوهمها من قبل . وكيف يمكن أن يكتب الإنسان عن الفنون الجميلة كالخمر والموسيقى والرسم وقد عفت آثار الموسيقى العربية ، وقد كان العرب

ينكرون صناعة التماثيل وينكرون التصوير والرسم ! فإذا هو قرأ عن
الفنون الجميلة شيئاً من ألوف الكتب التي ألقت فيها استطاع أن يفهم
من جمال الحياة ما لم يكن له إلى إدراكه سبيل من قبل . وكذلك
الأمر في غير الفنون الجميلة من العلوم والفلسفة الحديثة جميعاً .

وإلى أن ننقل هذه العلوم وهذه الفلسفة إلى اللغة العربية ، وإلى
أن تكون لنا مذاهب في العلم والفلسفة والأدب تقف إلى جانب مذاهب
الغرب — إلى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفي الآداب العربية ، قديمها
وحديثها ، لثقافة الأديب . أما في ذلك اليوم فسيشعر أدباء العربية أنفسهم ،
بدافع المنافسة وحب السبق في الوصول إلى الحق والجمال ، أنهم لا يقلون
عنا اليوم حاجة إلى الاطلاع على كل ما يظهر في عالم العلم والفلسفة
والأدب من جديد .

وستزداد هذه الحاجة كلما يسّرت المواصلات اتصال أمم العالم . فإن
أمكن أن يتوهم الإنسان مجرد توهم إمكان استقلال حي من الأحياء ،
سواء أكان هذا الحي أمة أم فرداً ، عن غيره من الأحياء في شؤونه
المادية أو العقلية أو النفسية ، فإن مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل
لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر ، وهو سيزداد كل
يوم إمعاناً في الاستحالة . ومسيري الأدباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب
الذي يريد أن يخطو بالأدب العربي إلى مراتب الكمال الفني مضطر ولا بد
إلى الاطلاع على أكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعاً إذا هو
كان جديراً حقاً باسم الكاتب أو الشاعر ، حريصاً حقاً على أداء رسالة
الأدب السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما في الحياة من حق
وجمال ، وبالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال .

اللغة والأدب

حضرت يوماً مجلساً ضم جماعة من كبراء مصر بينهم خول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة. وفيما ينتقل الحديث من موضوع إلى موضوع سأل أحد الحاضرين شيخاً لغوياً : أي الشعرين يفضل : الشعر القديم الذي اتخذ عنواناً له « قفا نبك » أم الشعر الحديث وعنوانه « حف كأسها الحب » ؟ فكان جواب الشيخ على الفور : إنى لأفضل الشعر الحديث فهو أعذب مدحاً إلى النفس ، فأما الشعر القديم فاجتناً إليه لغة أكثر من حاجتنا إليه للأدب .

وأثار هذا الحديث جدلاً هادئاً لم يطل أمده ، ولا يستوقف منه النظر شيء خاص في البحث الذي أريد أن أعرض الآن له . وإنما استوقفت نظري هذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب . فنحن في حاجة إلى الوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام ، وعلى كل أدب سبق عصرنا ، لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور ، ولنجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورها ما لا غنى لنا عنه إذا أردنا أن تظل اللغة في تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيدة عن أن يندس إليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف . فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية والفنية وما تنطوى عليه من مختلف الصور والألوان ، فتابع في تطوره للعصر الذي يعيش فيه

غير مضطر أن يتصل بالقديم النأى عنه بأكثر من صلة الوراثة ومن صلة اللغة . واللغة في الأدب ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرقيق الذي يعبر الأدب عنه . فأما قوام الأدب ففي الروح الذي يلهم ما فيه من معانٍ وصور وعواطف وإحساس . لهذا تراك إذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صوراً مختلفة من الأدب، لم يكن اللفظ هو الذي يقفك عنده ، بل كان ما يدل هذا اللفظ عليه وما يعبر عنه . وإذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة في الأدب من حيث موسيقاه وما تهز هذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتلاء المعانى التي ينطوى عليها ، فإن يسمو هذا اللفظ بالغاً ما بلغ رنينه ورسائته بمعنى غير سام ، وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبذل والناشر الرنين بالمعنى السامى أو الصورة الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء الأثر في النفس ما يجعلها تأسى وتأسف ألا يكسو المعنى الجميل لفظ جميل .

أنت إذن في حاجة إلى إتقان دراسة اللغة وتاريخها في المعاجم وفي كتب الأدب إذا أردت أن تكون لغويًا وكفي ، كما أنك في حاجة إلى هذه الدراسة إذا كنت ممن مُنحوا هبة الأدب . فكلما زادت ثروتك من الألفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعانى لذاتها أو مضافة إلى ألفاظ غيرها ، ازدادت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذي يصلح للتعبير عن قصدك تعبيراً دقيقاً وموسيقياً معاً . وهذا هو الذى يدعو فى الأمم الغربية المستعمدة لغاتها من اللاتينية واليونانية إلى تدريس هاتين اللغتين للنشء . فليس جمال هذه اللغات القديمة الميتة هو الذى يقصد لذاته أولاً وبالذات . كلا ! وإنما يقصد من دراستها إلى دقة إدراك المعانى التي تعبر عنها الألفاظ المشتقة منها . ومهما تكن آداب

اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبي في أوربا إبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها ، فإنما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية في العصور التي سبقت عصر البعث ذاك ، واحتياج الناس فيه إلى وحي جديد . ولم يكن يومئذ خير من هذه الآداب القديمة مهبطاً للوحي ومحلاً للإلهام شكسبير وراسين ودانتي وغيرهم من الذين قام هذا البعث على نبوغهم . لكن هذه التابعة أو هذا الرق للأدب القديم لم يدم طويلاً . وفي القرن السابع عشر نفسه قام كتاب وشعراء أمثال مولير ولابروير نزعوا غير نزعة العصر ، وأنشؤوا أدباً مستقلاً عن أدب اليونان والرومان وإن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق ، ليحيطوا بلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة . وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس جفراً حتى تنفس عن فولتير وروسو وديدرو وغيرهم من الكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم ، ومهدوا للأدب الغربي أن يستقل بنفسه عن الأدب القديم . ومع هذا الاستقلال التام في أدب الغرب ما تزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدباً لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يندس إليها عامل من عوامل الفساد والضعف . وإذا كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هي اللغة العربية ، وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لكياننا ، فإن كثيراً من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو في حكم البائد ؛ لأن أطوار الحياة التي مرت بالأمم التي أصبحت العربية لغتها جعلت هذه الألفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعاني التي تداولتها عصور فجر الإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين والأندلسيين وغيرهم ممن تطورت حضارة العالم بعملهم تطوراً عظيماً . مع هذا فدراسة تلك الألفاظ البائدة

نفسها تفيد من جهة لغوية بحتة، وقد تفيد الأديب في دقة تحديد المعاني التي تعبر عنها ألفاظ أخرى مشتقة منها أو كانت بينها وبينها في بعض العصور صلة لغوية من أى نوع من الأنواع .

على أن دراسة اللغة هذه لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث هي كساء الأدب على نحو ما قدمنا وبمقدار حاجة الأدب إلى هذا الكساء . صحيح أن الكساء كان له في بعض الأزمان المقام الأول . وماتزال طبقات الناس إلى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها . وصحيح كذلك أن اللغة بوصفها كساء للأدب، كانت في بعض الأزمان صاحبة المقام الأول عند الأكثرين، وأنها ماتزال ذات أثر لا سبيل إلى إنكاره . لكن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الأزياء بأقدار الناس في الحياة . وصلة الأزياء بالأقدار تتلاشى رويداً رويداً بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة في اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب ، حتى لنرى أكثرها أخذاً للنظر أشدها نيمعة عن الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الأدب، فصار أجدرها بالامتزاج بالأدب ما كان شفافاً عن المعاني والصور التي يعبر عنها، معواناً على زيادة ما في هذه الصور والمعاني من حياة وموسيقى . هذه اللغة الشفافة المضيئة السيالة التي لا تحجب عنك جمالاً مما أراد الأديب الموهوب إظهاره، ولا تقف في سبيل متابعتك الأديب أثناء تدفقه واندفاعه في تفكيره أو تصويره أو تغنيه وشدوه ، هي التي تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب في كسائها إياه ، حتى لتصبح جزءاً من رحيق الحياة الذي يعبر الأدب عنه . وهي كلما لطفت وازدادت بساطة وشففت بذلك عن كل ما أراد الأديب أن يحملها إياه وكانت في ذلك النغمات الصادرة عن نفس الأديب الصادقة العبارة عنه ، كانت

أُلصق بالأدب في العصر الذي يصدر هذا الأدب عنه .
الوصول باللغة إلى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير . بل هو يحتاج
إلى جهاد الأدباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة ويتناول
كل ناحية منها في مختلف صورها . وأدباء عصرنا الحاضر لا يجدون
من أدوات هذا الجهاد في الأدب القديم إلا ما قدمنا من ضبط اللغة ،
وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها لا تغني كثيراً في
عصرنا الحاضر . والواقع أن الأدب القديم كالأزياء القديمة كان يعتمد
على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الأزياء القديمة على نفاسة
القماش وكثرة حواشيه . وأنت إذا ذهبت اليوم إلى مسرح من المسارح
تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية ويظهر فيها الممثلون بأزياء تلك
العصور ، رأيت على المسرح أكواماً من أقمشة غالية تحيط بها أشرطة
ودتلات وغيرها من أسباب الزينة ، ورأيت فوق ذلك شعوراً صناعية
مزينة أيضاً ، ورأيت دونه أحذية تكاد لكثرة ما يرصعها من
الأحجار الثمينة تنكر أنها أحذية . وهذا كله يذهب ويحىء على المسرح ،
ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذي يدل على أن هذه
الكومة النفيسة تحتوى في أعماق داخلها حياة إنسانية هذا الوجه
مظهرها ... ما صورة هذه الحياة ؟ ما حقيقتها ؟ أجميلة هي أم قبيحة ؟
أجذابة هي أم ثقيلة ؟ أنت لا تستطيع أن تحكم ؛ لأن اللباس وحده هو
المتحرك أمامك ، ولأن الوجه الذي عرفت منه أن ما ترى إنسان ، وأنه
رجل أو امرأة ، قد كسى هو أيضاً بأصباغ وألوان أخفت معالمه
ونكرت معارفه ، ولأن التحيات والعبارات والأفكار لا تصدر عن
أصحابها ، وإنما هي صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لبيئتهم

حياتهم ليست لذلك حياتهم ، وإنما هم صور متحركة مختفية خلال نفائس الأقمشة وألوان الزينة مما ترى وما قد يفيدك كثيراً أو قليلاً عن حياة ذلك العصر ولباسه ، ولكنه لا يفيدك شيئاً عن الشخصية الإنسانية التي يصدر عنها الفن والأدب ، والقديرة وحدها على استخلاص ما فى الحياة من رحيق هو إكسير ما فى الحياة من جمال .

قارن بين هذا الذى رأيت على المسرح ممثلاً عصرًا مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها ، نجد البون شامعاً . فالحضارة الإنسانية اليوم تنزع إلى البساطة وإلى الصحة وإلى حكم الإنسان حياة الوجود بكل ما تمكنه قواه ومواهبه ، وإلى ظهور الذاتية الإنسانية خلال ذلك كله ظهوراً قويا واضحا . فلم يبق شخص الإنسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والدتلات وتحملها الأحذية المرصعة وتكسو أعلاها شعور مستعارة وتطل من خلالها صورة وجه إنسانى مخفف تحت الأصباغ والألوان ، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الإنسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها ، وصارت الحياة الإنسانية كذلك هى موضع الجمال لا اللباس الذى يكسوها . وبمقدار ما يعبر الزى عن الحياة يكون أشد للنظر استرخاء وأقوى عن جمال الحياة تعبيراً . وبكسامة الناس فى اللباس بساطتهم فى الطعام . لم تبق الألوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة ، بل صارت الألوان التى تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هى التى يميل الناس إلى إتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك أصبح الترف ذاته ينزع إلى البساطة والصحة . وإذن فالحياة الإنسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما أصبحت

من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هي الظاهرة القوية لا يخفيها
 اللباس بل ينم عنها ، ولا يتخمها الطعام بل يقويها ، ولا تغص بالترف
 بل تنعم به . كذلك تريد ألا يشغل اللفظ على روح الأديب ، وألا تجمد
 التقاليد بريشة الفنان ، وأن تصبح الذاتية الإنسانية حرة متوثبة دائمة
 الإبداع دائمة السعى في إبداعها إلى التحكم في كل ما في الكون وجعله
 بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس متاع أساسه البساطة والصحة .
 ولقد عاون العلم ، وما يزال يعاون ، على توجيه الحياة في هذا السبيل
 بما ربط بين أجزاء العالم وما أخضع من قواه لحكم الإنسان وما فسخ
 لذلك من ميادين متاعه . فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف
 وما إليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم في قبضة يد الفرد ، وقربت
 بين أجزائه تقريباً لم يكن يحلم به أسلافنا . أترك تستمع إلى أصوات
 الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا ، وتسمع وأنت في مقعدك
 إلى ما يجري في مختلف أنحاء العالم ، وتصل في ساعات إلى ما كان يقتضى
 من قبلنا أسابيع أو شهوراً ، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها
 السلف ويكون رحيقها منك ما كان رحيقها منهم ؟ لعل من الناس
 من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه
 الحياة التي نعيشها ، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن
 السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنا . ولست أخالف هؤلاء وأنا أشعر
 في كثير من الأحيان شعورهم وأجد في كثير من الأدب القديم جمالا
 ولذة ، وأجد فيه سذاجة تجذب إليه وتحبب النفس فيه . بل إن من آثار
 الفن والأدب القديم ما انتهى إلى الخلود وما سيظل موضع تقديس
 العصور والقرون المقبلة جميعا . وإن في « قفا نبك » من صور الجمال

في بعض المواضع مالا سبيل إلى نسيانه . لكن الآداب مرآة العصر ، كما يقولون . وإذا كان الأدب القديم مرآة للعصور التي يمثلها في صورتها الحياة وجمالها ، وكان ذلك مما يجب دراسته لكمال ثقافة الأديب ، فهو وحده لا يكفي ، كما أن الأدب الحديث وحده لا يكفي لكمال الأديب . بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما يؤهله لاستخلاص ما في الحياة من رحيق ، وليجلوه على صورة صادقة تمثل عصره . وهذه هي تفرقة الشيخ التي أشرنا إليها في صدر هذه الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا إليه للغة وللتاريخ ، وبين الشعر الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيراً يجعله أشهى وأعذب مدخلا إلى النفس . على أن هذه الدراسات لا تغني عما قدمنا من وجوب صقل اللغة لتمرزج بالأدب ولتكون له لباساً شفافاً موسيقياً رشيقاً ، وما يحتاج ذلك إليه من جهاد الأدباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . ومن الحق أن نذكر بالتقدير والإجلال جهاد من سبقونا في هذا المضمار من الشعراء والكتاب ومن رجال دار العلوم والأزهر ومن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم . هؤلاء جميعاً سعوا ويسعون سعياً حثيثاً محموداً في سبيل بعث ما كان قد ظل عصوراً طويلة طوى الكتب القديمة ، وجاهدوا فمهدوه وردوا إليه حياة كاد جهل العصور التي ساد فيها الحكم التركي الممالك العربية يعنى عليها ويدفعها إلى غير عودة . لكن اللغة كائن حي يجب له دوام التعهد . وتعهد اللغة في ناحية الأدب إنما يكون بدوام صقلها لتزداد رقة ولطفاً ، ولتكون موسيقاها مما يصلها بالأدب صلة وثيقة ويجعلها أكثر من كساء له .

هذا الجهاد حظ الكتاب والأدباء منه أكبر من حظ اللغويين وأصحاب المعاجم . ويكفى أن نذكر مثلاً لذلك ما يقصونه عن السكاتب الفرنسي الكبير فلوير وجهاده في هذه السبيل . فهم يروون أنه كان يحار أحياناً في اختيار اللفظ الذي يعبر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره ، فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعاً كاملاً ليجد اللفظ الدقيق الصالح ، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة « مدام بوفاري » ويقص انتحار بطلتها بالزرنيسخ كان يحس طعم الزرنيسخ في فمه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التي تصف هذا المعنى وتصوره تصويراً مضبوطاً . فهل لنا من الأدباء من يبلغ إخلاصهم لفنهم هذا المبلغ ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلتطف وتشف وتصبح موسيقى تتصل بالأدب لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها في عصور مضت .

هؤلاء الأفاضل المخلصون لفنهم هم الذين يجددون اللغة حياتها قوية رصينة ، وهم الذين يعملون للأدب وقيمون له أرفع صروحه . على أنهم في عملهم للغة إنما يعملون بوصفهم أدباء . وهم بعملهم هذا يقدمون للغويين غذاء جديداً يفيدهم في معاجمهم أكبر الفائدة ، ويجعل من الأدب الحديث ما يفيد اللغة بمقدار ما يفيدها أدب « قفا نيك » ، وإن بقي أديهم مع ذلك أدباءً عصرياً سائغاً لذيذ المدخل إلى النفس .

النثر والشعر

« كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مختفياً ... لتصوير إحساس كامل وعميق أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة » .

(قاسم أمين)

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعةً
بهندٍ ودعدٍ والرباب وبوزع
وملئت بنات الشعر منا مواقفاً
بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم غيراً وأينقأ
متى يُعِيها الإيجاف فى البيدِ تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطيةً
ولا السلك فى تياره التدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل
نغنى بأرماح وبيض وأدرع

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى

لشيء جديد حاضر النفع ممتع

(حافظ ابراهيم)

هذه الأبيات من حافظ ابراهيم ، وتلك الكلمة من قاسم أمين
صیحتان صریحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية ثراً وشعراً .
وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربع قرن أو أكثر ،
وأن شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين . وليس مقام حافظ في
الشعر بمنكر . وقاسم من المقدمين في تجديد الكتابة العربية بل أولهم
وأكثرهم جرأة وإقداماً . على أن هذه الشكوى لا يقف أمرها عند
حافظ أو قاسم ، بل هي تجيش بنفس كل كاتب قوى الشعور دقيق الحس
واسع الاطلاع ، وبنفس كل شاعر سمى شاعريته عن أن تقف عند ترديد
الأشعار القديمة بقواف جديدة ، وعند سبك الصور والأفكار والمشاعر
القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب الأولى بهجة ، ولكنها ليست لذلك
ذات فضل ؛ لأنها في الواقع ليست إلا محاكاة وتكراراً . ومحاكاة الإنسان
للإنسان لا تحتاج إلى نبوغ وإن احتاجت إلى ذاكرة ، ولا تصل إلى
مقام العبقرية وإن خلبت الأنظار فجأة بلائلاء بريق سرعان ما يخبو إذا
تعرض للنقد الصحيح .

وإنما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم
وثقافتهم في حدود هذا الماضي الذي أشار إليه حافظ ابراهيم ، والذين
اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة ؛
هؤلاء يرون أن المدارك والإحساسات الإنسانية ليست جامدة ولا يمكن
أن تكون كذلك ؛ لأنها خلق البيئة المحيطة بالإنسان . وقد كانت هذه

البيئة في الماضي ضيقة محصورة في حدود القرية أو القطر من أقطار الأرض الذي يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الإنسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب ، وأصبح من اليسير أن يطلع كل مثقف على آثار الفكر والشعور الإنساني في الأمم المختلفة ، فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور ، وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبه وبين العطف على شخص والإشفاق عليه ، وبين النفور والكرهية ، وبين الحجل والخوف ، وبين التردد والجبن ، درجات متميزة في الإحساس تدركها النفس إدراكاً دقيقاً ، وتعبر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالباً بأداء ذلك في اللغة التي تكتب بها ، وهي اللغة العربية ، فتشعر بالعجز ، وترى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عابياً ، وأن أحسن ما في نفسك بقي فيها مختفياً . بهذا الإحساس يشعر الذين يقرءون ثمرات العلم والأدب الحديث في مختلف اللغات سواء وقفوا عليها في كتبها الأصلية أو مترجمة إلى اللغات التي صقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور . وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين في اللغة العربية الواقفين على آداب الأمم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربي المقابل للفظ أجنبي يعبر عن فكرة أو إحساس فلا يجدونه ، بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذي يقصدون إلى تصويره .

على أن الكتاب الضليعين في العربية والواسع اطلاعهم في اللغات الأخرى ، مافتئوا إلى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره ، يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة » وإن كانوا قد سلكوا

سبيلهم إلى هذه الغاية بإحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثواباً جديدة تعبر
عن الأفكار والإحساسات الجديدة ، آخذين في ذلك مأخذ كل الأمم ،
قانعين من التجديد — بمعنى الخلق دون البعث — بالألفاظ الأجنبية
التي لارجاء في وجود مقابل لها في العربية ، إلا أن يكره لفظ قديم على
تحمل الصورة الجديدة إكراهها سخيفاً . ولقد عالج بعض أنصار القديم
من الكتاب هذا الإكراه فأخفقوا فيه ؛ لأنه مناف لطبائع الأشياء ،
فمقضي عليه بالإخفاق لا محالة . ٩

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين في سبيل إحياء اللغة العربية حياة
صحيحة إن لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا في سبيله
شوطاً بعيداً . وحسبك مقنعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض في
أسلوبه أو في تفكيره أو تعبيره عن الشعور والإحساس واحداً من
الكتاب الأقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتاب
لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ، ولا طه حسين لابن المقفع ،
ولا مصطفى عبد الرزاق لعبد الحميد الكاتب ، ولا غير هؤلاء من كتاب
العصر الحاضر لواحد من كتاب العصر القديم ، وإنما يتكلمون عن
أسلوب العقاد ورأيه ، وأسلوب طه حسين ونظرياته ، وأسلوب مصطفى
عبد الرزاق ودقته وظرفه . بل إن من لا يزالون يسمون أنفسهم
أنصار القديم من الكتاب ، أمثال مصطفى صادق الرافعي وصادق
عبر وغيرهما ، قد أثرت في أسلوبهم وفي تفكيرهم حركة التجديد
هذه تأثيراً عميقاً ، حتى أصبح الجديد طبيعة نفوسهم ، وأصبح ما يقتفون
فيه أثر القديم ظاهراً فيه العمل والصناعة والتكلف ، فما يكاد الواحد
منهم يترك نفسه على سجيئتها حين يكتب حتى تراه يعيش في هذا العصر

الذى نحن فيه ، يكتب بأسلوبه ، ويفكر بتفكيره ، ويرى ما يراه من ألوان الإدراك والحس المختلفة . ونحسب أنه لولا بقية من الحرص على ماضٍ امتازوا فيه على غيرهم من الكتاب حين كان تقليد الأقدمين امتياز شعرائنا في الحاضر امتيازاً يروونه مجدّم وخرفم ، إذن لرأيت الرافعى وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا فى سلك المجددين انخرطوا . ولعل لهم عن ذلك من العذر أن الإنسان لا يستطيع ، وإن حاول ، أن ينسى ماضيه أو أن ينكره .

وليس عجيباً أن يتأثر أنصار القديم بحركة التجديد ، بل العجيب ألا يكون ذلك . فالحياة دائمة التطور ، والجديد هو آخر مظاهرها . وهذا وحده هو السبب فى أنه جديد ، فإذا انقضى عصره وأحدث غير الحياة جديداً بعده أصبح هو قديماً . وما دمت تعيش فى عصر فأنت متأثر حتماً بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذى يحدث فيه . على أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالأبوة والوارث بالمورث . ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول ، ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم وإن هو حاول كذلك . بل إن محاولته الأخيرة لتظهره فى ثوب أنصار القديم من التكلف والصناعة ، كما أن محاولته الأولى ، وإن نجح فيها ، تظهره فى ثوب من التكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس أقل منه استدعاء للسخر . ولعلك لا ترى فرقاً كبيراً بين ما يتركه من الأثر فى نفسك رجل يلبس اليوم رداء الأقدمين ويسير مسيرتهم ، وآخر يبالغ فى تقليد آخر طراز إنكليزى بالحديث والتحية والعبارة .

ولذلك أيضاً أخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر

اللغة وماضيها ، ورجع أكثرهم إلى الدائرة التي يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة ، حتى قطعوا منها في سبيل إحياء اللغة العربية شوطاً بعيداً .
 رجع أولئك إلى هذه الدائرة ، كما تقدم إليها أنصار القديم خطوات واسعة . والحق أن هؤلاء المستبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثاً جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التي تتكلم بها . ولا حاجة لضرب الأمثال ؛ فكتب العلم والأدب التي أبدعوا فيها متداولة في أيدي الناس جميعاً يتلون فيها أسلس الكلام وأصح وأدق عبارة في نقل ما استحدثته الإنسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف عنه العلم من نظريات .
 وليس يعرف مبلغ العناء الذي يحتمله أولئك الكتاب ومبلغ الجهد الذي يبذلونه إلا من رآهم يعتصرون أدمغتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذي يدور بخاطرهم أدق التصوير . وأشدّ عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافات الشرق والغرب جميعاً تتسع له اللغات التي صقلت في القرون الأخيرة بل توحيه ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط في اللغة العربية . إذ ذاك يجاهد ليعث الألفاظ القديمة فيصفاً في بوتقة التجديد لتبدو في صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقاً وأشدّ دلالة على المعاني التي يراد أن تدل عليها من غير أن تشوبها لذلك كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهد الذي اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية في العصور الأخيرة فما يزال النثر لما يبلغ الشأو الذي نرتجيه له ، ولما يصل إلى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا وإحساسنا تعبيراً دقيقاً ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من أجل أفكارهم ، أو رواية عاطفة من أدق عواطفهم وأعمقها ، أو تصوير حس من أجمل إحساسهم وأسمها ؛ لأنهم يرون أنفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام إنما قالوا

شيئاً عادياً ، وأن أحسن ما في نفوسهم بقي فيها مختفياً . على أن هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك أن يترقوا من الأبواب التي اقتضتها حياة العالم في العصور الحديثة ما لم يطرقة الكتاب الأقدمون . وليس من الغلو في شيء القول بأن أكثر ما طرّقوا من الأبواب لم يتعرض العرب له إلا عرضاً ؛ لأن التجديد لم يقف عند الأسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث وألوان الحس ودرجات الشعور ، فصارت شيئاً مغايراً تمام المغايرة لما كان عند العرب ، واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً ، وقد أصبح هذا البناء شامخاً ولكنه ما يزال في حاجة إلى التعهد والصقل والصيغة وإلى السعة نفسها ، حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة في أبعد مداها ومراميها وأعماقها .

هل بلغ الشعر مبلغ النثر في التجديد ؟ وهل نستطيع أن نقول إن جهاداً شاقاً وجهه إلى أية ناحية من نواحيه كما وجهه إلى نواحي النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهاد أن يواتى حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذي يواتيها النثر به ، فإذا انقضت أجيال وعرض أدب عصرنا الحاضر ثراً أو شعراً على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ ؟ يجب قبل أن نبدأ . هذا البحث أن نقرر واقعة متداولة على أنها حقيقة ثابتة . تلك أن الشعر العربي في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه ، وأن مكانة الشعر في عصور بني أمية وبني العباس والأندلسيين كانت أسمى بكثير من مكانة النثر وأدنى إلى الكمال ، وأن الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت جميعاً تصاغ في الشعر بخير مما تصاغ في النثر . بل إن الشعر العربي كان هو الأدب العربي ، وإن النثر إلى جانبه كان مكملًا له غير مستقل عنه ، حتى لكان الكتاب

يحلون ثمرهم بما يرصونه به من أبيات الشعر . فإذا كانت هذه الواقعة المتداولة حقيقية بالفعل ألا يكون من الواجب على الشعراء أن يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر العربي كما كان في أزهر عصوره ، ليعيدوا للأدب العربي جدته ، وليكونوا قد سبقوا الكتاب إلى إحياء اللغة العربية وأدبها ، أو ليكون مجهودهم مساويا لمجهود الكتاب في التجديد ، ليكون حكم الناقد الذي يستعرض أدب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئاً لحكمه على النثر في تعييرها عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا ؟

لا ريب في أن النظر إلى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نفرح للشعراء بفضل أي فضل . فليس من كبرائهم إلا من عارض أنخم قصائد كبار الشعراء في الماضي ، فوفق في معارضته أعظم توفيق ، وتفوق في بعض الأحيان تفوقاً لا سبيل إلى إنكاره . وهؤلاء سمي البارودي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ إبراهيم وأضربهم من خول شعراء العصر الأخير ، لم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد العربية الكبرى إلا عارضوها وزناً وقافية ومعنى ، فوفقوا وتفوقوا في أحيان كثيرة . وسينية شوقي الأندلسية التي يعارض بها البحترى مشهورة . ومعارضة إسماعيل صبري وشوقي لقصيدة : « يا ليل الصب متى غده » ما يزال الناس يتحدثون بها . أما البارودي فقد عارض كثيراً من خول المتقدمين وفي مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد وغيرها هي من طراز القصائد التي تعارضها لغة وأسلوباً بل معاني وصوراً ، حتى لكانها قيلت في تلك العصور التي قال أشبائها فيها البحترى والنابغة والحصري وغيرهم من أكابر شعراء العرب . وإذن فقد بعث شعراؤنا المصريون ذلك الشعر العربي القديم بحزائه ومئاته .

بل لقد افتن شعراؤنا في وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال في
الشعر القديم؛ لأن هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها أعين الشعراء
الأقدمين أو لم يتعلق بها خيالهم أن لم يتعلق بها شأن من شؤونهم . ولست
أنكر أنى أذوق وصف حافظ إبراهيم لقصر الجزيرة الذي أصبح حديقة
الحيوان، كما أذوق قصيدته في نكبة مسينا بالزلزال، وبخاصة حين يقول :

ربّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر

ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى

وفتاء هيفاء تشوى على الجمـ

ر تعانى من حرّه ما تعانى

وأب ذاهل إلى النار يمشى

مستميتاً تمتد منه اليدان

باحثاً عن بناته وبنيه

مسرع الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لا هو ناج

من لظاها ولا اللظى عنه وانى

وكما أذوق هذا الوصف لحافظ أذوق كثيراً من شعر شوقي

في الوصف ، وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده

وكلاب صيده ، ووصفه لقصر أنس الوجود إذ يقول :

قف بتلك القصور في اليم غرقى

ممسكا بعضها من الدعر بعضا

كعذارى أخفين في الماء بضاً

ساجحات به وأبدن بضاً

مشرفات على الزوال وكانت
مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت
وشباب الفنون ما زال غضا

ولست أنكر لذلك إعجابي الذي لاحدله بالشعر الوصفى في وجدانيات
إسماعيل صبرى وفي حماسيات البارودى . ولكنى أعود من هذا الإعجاب
فأسائل نفسى : هل هذه القوافى التى ما زال نحن مرتبطين بها منذ
عهد العرب ، وهل هذه الصور التى أدت بحافظ إبراهيم إلى أن يقول :
* ونحن كما غنى الأوائى لم نزل * نغنى

وهل هذه القيود المعنوية التى تقيدنا فتجعل شوقى فى إحدى قصائده
الفذة يذكر الهودج على أنه مركب أم المحسنين فى حين كان مركبها
أوتومبيلها الفخم — أعود فأسائل نفسى هل الإعجاب بهذه القوافى
والصور والقيود راجع إلى أنها تؤدى حاجات النفس من إدراك وحس
وعاطفة أداء صالحاً أم هو راجع إلى أنها تثير فى النفس ذكر ما حفظت
أول شبابها من شعر كعجائبك بنغم القيثارة الريفية الساذجة بعد سماعك
للأحان عبد الوهاب بل لموسيقى موزار وبتهوفن ؟ !

كنت أتحدث فى سنة ١٩٢٧ إلى جماعة من أصحابى وبينهم الشاعران
الكبران حافظ إبراهيم و خليل مطران ونحن على الباخرة النيلية
« بريطانيا » فى النزهة التى دعت إليها لجنة الاحتفال بتكريم شوقى بك
بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما يحس الكثيرون
به من أنه لم يسبق النثر إلى الخطوات التى يستطيع معها التعبير عن
كل المعانى التى تجيش بالنفس على صورة تنفق ونغم الموسيقى الجديدة

ولا تقف عند الأوزان القديمة التي يقولون إنها كانت تلائم سير الإبل خيبا وذميلا . ولم يعترض الشعراء على هذه الملاحظة بل وافقوا عليها ، وذكر أحدهما أن السبب في جمود الشعر عند أوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء في وجه كل تجديد وإعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس أحد الحاضرين أن يذكر كيف تطورت الأغاني العامية واتفقت مع الأنعام الحديثة ، كما أدجت على ابتدائها كثيرا من صور الحياة الحاضرة ومستحدثاتها خلال ألفاظها ومعانيها . وما أظن أن أحدا يرتاب في صحة هذه الملاحظات على الشعر العصري وعلى وقوفه في قوافيه وأوزانه وفي صورته ومعانيه عن مجازاة أنعام العصر وموسيقاه بل عن مجازات الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر . لقد تقف بين ألوف القصائد التي قيلت والتي تقال على أبيات بالغة غاية الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن أدق إحساس وأقواء ، لكن هذه الأبيات منشورة في لجج مترامية انتشار الدر في قاع البحر ، لاتعثر عليها إلا بعد جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة ، وليس هو محاكاة الأقدمين . إنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع أو تهبط وتهبط وأنت مندفعة معها منساق وراءها ، متلذذ باندفاعك وانسيائك تلذذك بصوت المعنى أو بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المعنى إلى القرار أو السمو الذي تنساق إليه نفسك طائعة مختارة ، يجب أن يسبقك الشاعر في فيض الحس أو الشهوة أو العاطفة ، وأن يشترك

من ذلك أضعاف ما تشعر به لو أنك كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيداً ، وكلما استوت له في ذلك النفوس جميعاً ، اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيض بناته ورباته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول أن يوفق لجديد في الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به إلى هذا المدى الذي وصفنا . وفي هذه المحاولات جرأة وفيها جمال . لكنها لما توفق للطريق السوى ، فتعبر عن مدركاتنا وأحاساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل إليه النثر من قوة ودقة . وهي لما توفق للخروج بالشعر من هلهلته التي تجعل أكثر قصائده ليس بين البيت فيها وما بعده صلة ، حتى لتستطيع أن تغير مواضع الأبيات كما شئت دون خوف . ثم هي لما توفق لأوزان تخرج بها عن سير الإبل خبيبا وعنقاً إلى شيء يتفق وأنعام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر لهذا الطريق في تلك النواحي المختلفة ، ويوم يؤدي الغاية التي أشرنا إليها ، يكون قد وفق لأداء حاجات النفس أداءً صالحاً . ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما يجعلها تواتى الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر في غير مشقة ولا عناء . لكن ذلك إنما يكون يوم تزول عن الشعر علته . فما هي هذه العلة ؟ وما هو سبب الجمود الذي أشرنا إليه في هذا الفصل ؟

عصر الشعر

يوافقني صديق الدكتور طه حسين على أن النثر العربي قد تطور في هذا العصر الأخير إلى حيث قارب أن يكون صالحاً لأداء حاجات النفس ، وإن كان ما يزال في حاجة إلى معالجة وإلى صقل وإلى زيادة في ثروة ألفاظه ليصل إلى ما وصلت إليه الكتابة في الأمم الغربية صاحبة للندية الغالية اليوم ، وعلى أن الشعر ظل حيث كان الشعر في الأيام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الإسلامية في أبهى عصورها العباسية والأندلسية . وهو يعزو تطور النثر وجمود الشعر^(١) إلى مطالعة الكتاب^(٢) واتصالهم بحضارة العصر في كل مظاهرها العقلية والنفسية ، وإلى اكتفاء الشعراء بما قرءوا في شعر العرب ، وإلى كسلهم العقلي بعد ذلك وعدم تغذيتهم أرواحهم ونفوسهم وعقولهم بما تفيض به الأرواح وتشعر به النفوس وتنتجها العقول من الآثار في العصر الحاضر . كما يعزو جمود الشعر إلى أن الشعراء قد جعلوه بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وما إلى ذلك مما لا يتصل بالشعر .

ولنقف عند هذه الأسباب قبل أن نبحث عن غيرها مما أدى بالشعر إلى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء إلى القراءة وإلى الاتصال بحضارة العصر حتى لا تنتهم بمحابة طائفة على الأخرى . فأما كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من أثر في شعرهم ، فقد يكون فيه

بالقياس إلى أكثرهم جانب من الحق وإن يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر. فهم يقرءون بدء صباحهم حتى تتحرك ربة الشعر أول ما تتحرك في نفوسهم، وبعضهم يقرأ الشعر العربي القديم لأنه لا سبيل له إلى الاطلاع على الشعر ولا على الأدب العربي، وبعضهم يتصل بهذا الأدب العربي فإذا استوى لهم الشعر العربي واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا بحاجة ملحة إلى التبحر في اللغة العربية وفي الشعر العربي بنوع خاص، لكي يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل لموسيقى النظم في نفوسهم مما لا سبيل إلى ابتغاء العوض عنه في غيره من أدب غربي أو من موسيقى أو من أدب عربي حديث. وهم سرعان ما يصلون في ذلك إلى إنضاج اللغة في نفوسهم. وما أكثر ما يتيسر لهم بذلك الوقوف على الألفاظ التي تحتاج إليها قوافي الشعر وأوزانه. فإذا اندفعوا في هذه الناحية من نواحي البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم إلى نضج اللغة وإلى ثروة القوافي، بل تأثروا بالشعر القديم أشد التأثر وأخذوا عنه في كل شيء، واندفعوا بحكم ميل النفس إلى دعة الحياة لمحاكاته ومعارضته. ولقد كانوا إلى زمن قريب يشعرون بما في ذلك من شهادة بسبقهم وتفوقهم، حتى أخرجتهم نخبة القديم والحديث في اللغة والأدب من سباتهم، وجعلت المبرزين منهم يفكرون في جدة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربي، ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربي في اقتحامه إياها. لكن هذه المحاولات ما تزال في بداءتها. وأجراً لهذه المحاولات ما وضعه شوقي من روايات لم يحص النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة. وأما أن الشعراء يجعلون شعرهم بعض ما تزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل

البعد عن المعاني والصور الشعرية ، فصدىقه طه على حق فيه . فالشعر ظاهرة نفسية لقائله ، يشدو به حين تفيض نفسه بإحساس من الإحساسات أو بمعنى من المعاني لا تستطيع أن تكتمه . ولن يصدق أحد أن ينبعث هذا الفيض عن دعوة تدعوها جماعة لشاعر كي يقول في غرض معين كحفلات التكريم والتأبين وإنشاء النقابات والمصارف .

على أن شعرائنا في غير هذه الأغراض ، ولهم فيما تلهم المعاني الشعرية الصحيحة ، ما يثير في النفس الإعجاب . وإنك لو اجد شعراً صحيحاً في المقطوعات الوجدانية التي قالها إسماعيل صبرى ، ولو اجد شعراً صحيحاً في كثير من قصائد البارودى عن الأنفة وعن الحرب وعن الحنين إلى وطنه وهو في منفاه ، ولو اجد كذلك لشوقى معاني شعرية ذات روعة في قصائده عن الماضى وفي تخنانه إلى مصر أيام كان في الأندلس . ولغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه . لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذى خلفوا والذي يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالا . وإنما نظم الشعراء أكثر شعرهم في هذه الأغراض التي ليست من الشعر في شيء . وللشعراء عن ذلك عذرهم . وليس هذا العذر مقصوراً على عدم القراءة وعلى الكسل العقلى ، بل هو أعمق من ذلك بكثير . ولعلمهم لو قرءوا وأجهدوا في القراءة أنفسهم وأعصابهم ، لما وصلوا من الشعر إلى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين . فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والأصول والفقه وما إليها مما يتصل بالدين بأى نسب . لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئاً ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيراً ولا قليلاً . ويخيل إلى

أنهم لو قرءوا تاريخ العقائد وتطور الأديان ، بل لو أنهم رجعوا إلى الأساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم ، وما انتقل من التوراة إلى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات ، إذن لما غيّر ذلك من أذهانهم شيئاً . ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب ، بل هي مسألة تدبر وشعور شخصي ، فكري أو نفسي ، يتأثر بلامسة مظاهر الحياة من مرثيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب الإنسانية المهذبة تهذيباً خاصاً يجعلها قابلة للتأثر والإحساس . ويجب أن نعترف ، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعدّا كثرتنا لهذا التأثير الفردي والإحساس الذاتي . فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا أن يميزا من هذه الصور ما يأخذها ويلفتها لفتات خاصة ، بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ويكرههما على الخضوع لها والإيمان بها . وكما أن حرية الفكر هي أساس النشاط العقلي المنتج وأساس ما يترتب على هذا النشاط العقلي من سمو في الكتابة بلغ الكتاب بعضه ، فحرية الحس هي أساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقاً ، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوز شعراً .

والتحلل من جمود هذه القيود ليس أمراً يسيراً . بل لقد يتماثل منها الرجل في نفسه ويراها عبثاً ثقيلاً وسخرية وهزواً . لكن نفسه التي ألفتها في الماضي والتي ترى في اطراحها ما يشير الخصومة بين الجماعة

وبينها ، تؤثر ما سماه طه كسلا عقليا ، مع أنه قد يكون شيئا آخر . قد يكون هو الملل وضعف الرجاء في الانتصار على جمود الجماعة ، والاضطرار لذلك إلى النزول منها منزلة تمليق مشاعرها الجامدة حتى حين هياجها وتمليق إيمانها المتعصب الثائر على كل تسامح . ولعل هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شيء وهجائه ، لأنهم انتقلوا من التسليم بحاله وبما فيه من خير إلى إنكاره والاعتقاد بضره ، بل لأنهم أشد حرصاً على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئاً عن فيض روحى لاسبيل إلى كبجه ، وإنما منشؤه النظر إلى الحياة ومصالحها نظرة منفعلة لا شعر فيها ولا إيمان بها . فالتحدث على أثر هذه النظرة حديثاً منظوماً إنما يرضى به الشاعر سامعيه قبل أن يمر بخاطره إرضاء نفسه .

ألم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملل وضعف الرجاء في الانتصار ؟ ! أم هم من طينة غير طينة الشعراء وأعدهم تهذيبهم لألوان من التأثير الذاتى والإحساس الفردى غير ما أعد تهذيب الشعراء إياهم له ؟ أعتقد أن الأمر متعلق بالظروف التى أحاطت بالكتاب والشعراء أكثر من تعلقه بهذيب هؤلاء وأولئك مما يشترك الكل فيه على سواء . فقد كانت الكتابة جامدة جمود الشعر إلى مادون نصف قرن مضى . وكان الكتاب يقلدون أساليب الأقدمين ويحتذون أنواع كتاباتهم فى المقامات والرسائل وما إليها ، ويغرمون بالسجع وبالبديع غرامهم ، ويعتبر أحدهم أكبر خفزه أن يكون معارض الجاحظ أو عبد الحميد . وفيما هم فى سكنتهم الى أدبهم تسالت الى مصر وإلى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية وبما أصاب أوروبا من هزات عنيفة فى أعقابها ، فقام دعاة لمثل هذه الثورة بعضهم فى السر

وبعضهم في العلن ، واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم إلى إعلان
ثورتهم . ولم يكن أسلوب ابن المقفع ولا لغة ابن قتيبة ولا صناعة المبرد
هي التي تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادئ ، ولا كانت هي التي
تكفل حسن صياغة هذه المبادئ والدعوة إليها . لذلك لم يكن بد من
أسلوب جديد ومن لغة جديدة : أسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية
الصحيحة ولا يستعصيان على إدراك الجمهور ، ولا يقفان دون تمثل
مبادئ الحرية والإخاء والديمقراطية ودفعها إلى نفس الجمهور ليستطيع
هو أن يسيعها وأن يتمثلها وأن يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها . وكذلك
لم يكن بد من أن تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة في الخطابة
والكتابة . أما الشعراء فظل أكثرهم بمعزل عن هذه الحركة ، ولم
يفكر أحدهم في أن يبدع في الشعر جديداً يقربه إلى الجمهور ويقرب
الجمهور إليه ، واعتبروا مثل هذا السعي جنائية على الشعر بوصفه فناً جميلاً .
من ثم أقام الشعر في سماواته الأولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس إليه ،
وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها ويلفها
إلى ناحية النور الجديد ويلهمها فضل الآراء الحديثة . وكلنا يذكر
جهد الكتاب في سبيل التحلل من قيود الماضي وما قاساه قاسم أمين
ولطفي السيد وغيرها ، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة ومس الحاجة
للإصلاح الاجتماعي وعجز من سوى هؤلاء المجددين من الكتاب دون
الاضطلاع بأعباء هذا الإصلاح وتوجيه تلك الشهوات ، ثم لولا تغلب
المدنية الحاضرة مدنية العلم والعرفة وعجز من سوى المجددين دون رفع
لواء هذه المدنية ، إذن لبقى النثر كما بقي الشعر في جموده ، ولبقينا
مقيدين بالصور القديمة نكتبها لا نعبر بها عن شعور يمر بخواطرنا

وعن فكرة تنضجها أذهاننا ، ولكن لنجاري بها الجاحظ أو عبد الحميد
أو بديع الزمان ، ثم ليكون أقربنا إلى محادثهم أبرعنا في الكتابة ؛
لأنه يكون صدى أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية في
زمانهم ، والفونوغراف الذي يحكي بدقة ، وإن يك من غير شعور ،
ما ألقى به إليه .

على أن ثورة النشر لم تصل من تحريره إلى كل ميادينه ، ولم تقر
للأدب حريته في كل صوره ، بل وقفت عندما أبدت الظروف مسيس
الحاجة إليه . وما أحسب واحداً من الكتاب يحدث نفسه بأن الكتابة
بلغت من مثلها الأسمى الذي تصبو إليه غاية المدى أو أصبحت
لا يحول بينها وبين دقة الأداء عن كل ما يحول بخاطر الكاتب إلا قصور
ألفاظ اللغة وأساليها . بل ما يزال بيننا وبين الكمال مدى واسع
غير إتقان الصناعة ودقة الصياغة . وإذا كنا قد اقتحمنا بعض الميادين
التي كانت من قبل أقداساً لا ترتفع إليها العين ولا تسمح لنظرة منها
بخلصة ، فإننا ما زال أمام بعض الميادين الأخرى مقيدين كالشعراء سواء .
وربما كنا كذلك أمام أكثر الميادين الشعرية التي تتعلق بالحس وبالعاطفة .
فأين منا من هوى قلبه إلى ألوان غير مألوقة من الجمال تمددت فيه
وانتشرت فملاؤه ففاض به هواء فعبر عنه تعبيراً صادقا ؟ وأين منا من
ساور الشك نفسه أن رأى النور القديم الذي اهتدى به أسلافنا قاصراً
عن هدايتنا ، كما صارت الأنوار القديمة التي كانت تنير دياجير الليل
فاترة ضعيفة أمام لآلاء الكهرباء ، فانبعث يلمع نوراً جديداً واندفع
إلى ذلك بحرارة إيمان كلها عاطفة وكلها شعر وكلها فيض وإلهام ؟
وأين منا من سما للكمال بعاطفته فبكى المذنب ذنوبه ورأى فيه

أخاً أحق برحمة الله ممن لم يجترح في الحياة إثمًا ! وأين منا من اهتزت كل أعصابه من الألم أمام مأسى القدر يفجع بها الأبرياء كل يوم فتار على القدر ثورة الجسارة ! أو ليس واجباً علينا ، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأدب ، أن نكون رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر لأنها مغللة ملقاة في غيابات الماضي ، والذين لا شيطان لهم يستمعون إلى وحيه لأن شياطين الشعر لا تلهم إلا أحرار الحس والشعور والخيال ! أولاً يجوز لغيرنا إذا رأى ما بينت من حالنا أن يهيب بنا : رفقاً بالقوارير ، وأن يذكرنا بكلمة السيد المسيح « من كان منكم غير ذى وزر فليرمها بحجر ! » .

وسنظل معشر الكتّاب قاصرين دون التعبير عما يحول بخواطرنا كريف حق تنحل القيود التي تربطنا ، وتتفتح أمامنا الميادين التي ما تزال مقفلة كما تفتحت إلى اليوم ميادين أباحت لنا أن نصل فيها إلى تطور الكتابة تطوراً يسّر لنا التعبير عما يحول بخواطرنا بعد تلك الثورة القوية التي قام بها الذين سبقونا والتي ما تزال إلى اليوم مستمرة تريد أن تفتح من الأبواب ما لا يزال مغلقاً .

ولا سبيل إلى جدة الشعر إلا أن تؤدي إليها ثورة كالتى أدت إلى جدة النثر . وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية أدوات هذه الثورة في الشعر ما لم يكن لها أساس عميق منده الشعور الإنساني الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية . وما للشعر وهذه المصالح والشهوات ؟ ! إنه لا يلبث إذا تناولها أن يسمو بها إلى مراقبه التي تخلق فوق وضع المطامع ، ويكسوها هالة من جمال وجلال ، ويستصفي الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده . انظر إلى الشعر الغرامى .

ليست « جوليت » وليست « ليلي » وليست « هلويز » لنواتهن شعر الشاعر ، إنما الشعر ما في جمال أولئك وما في عاطفتهن من خالد يتنقل على الأجيال ، فيشدو به الشاعر ويسبغ عليه كل ما واثاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور . وكما أن الحب عاطفة تحرك الشاعر فالإيمان عاطفة تحركه ، والشفقة كذلك عاطفة تحركه . ونفوسنا في حاجة إلى غذاء من الإيمان كحاجتها إلى غذاء من الحب . ولن يكون إيمانها شعراً إذا هو كان إيماناً مطمئناً ، كما أن الحب لن يكون شعراً إذا كان حباً مطمئناً . بل لابد ، في الحب وفي الإيمان وفي الإشفاق وفي الحرية وفي مختلف مظاهر الطبيعة وفي كل ما تتأثر به النفس ، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلاً أعلى وأمثلاً سامياً ، لتفيض به النفس شعراً ، وليكون لهذا الشعر على الزمن بقاء . فأما مادون ذلك من أثر هذه العواطف في النفس فالشعور به مشترك بين الناس جميعاً ، وليس في الإفضاء به شيء من الشعر ، وإن أمكن أن يكون فيه نظم وكلام نغم وفصاحة وبلاغة وبيان بديع . وهذا هو ما يجعل لصديقي طه كل الحق حين يأخذ على الشعراء أنهم يجعلون شعرهم بعض ما تترنن به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية ، وما يجعل كل إنسان على حق حين يعيب شعر المناسبات وحين يعيب أكثر الشعر العربي الحديث ؛ لأن أكثره شعر مناسبة . والأمر كذلك في شعرنا الحديث بنوع خاص ، أن كانت المناسبات التي تلهمه ليست مناسبات تحرك نفس الشاعر وتهزها من الأعماق فتدفعها إلى الإفاضة بمكنون ما فيها ، حتى لتجدك ماتكاد تتخطى بعض الأبيات المتصلة بالمناسبة حتى ترى إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد تجلى وقد غمر المناسبة وسما فوقها واتصل بحياة الوجود كله على نحو ما حركت الثورة

الفرنسية نفس جيتى أو ما حرك زلزال لشبونة نفس فولتير . وإنما هى مناسبات تافهة أغلب أمرها كالمناسبات التى توحى ما يلقى من الشعر فى الحفلات . فإذا هى بلغت من القوة والسمو ما يحرك نفس الشاعر ويشيرها ويذكرى فيها أقوى المعانى وأروع الذكريات ، رأيت ذلك قد وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد قصيرة لا تتجاوز الأربعين أو الخمسين أو الستين بيتاً ، ورأيت سمو الإلهام لا يتصل فى هذه الأبيات كلها فياضاً متدفقاً آخذاً بعضه برقاب بعض ناقلًا إليك معه إلى السماوات التى ارتفع الشاعر إليها ، بل ترى سمو الإلهام هذا قد وقف عند أبيات منشورة هنا وهناك خلال القصيدة من الشعر كلها رصينة النظم واللغة ، لكن الإلهام فيها لا يعدو أن يكون بروقا خاطفة تأخذ النظر كلما أنارت ، ولكنها ما تلبث أن تخبو لتحل محلها الصنعة فى الشعر والتجويد فى النظم . وإذا كان مرجع ذلك فى المناسبات العادية إلى أن شعر المناسبات ضعيف بطبعه ؛ لأن الإلهام فيه ينطبع فى النفس من حوادث خارجة عنها ، فى حين أن الإلهام فى الشعر الصحيح داخلى يصدر عن النفس ذاتها ويهتز له كل وجود الشاعر لأنه الفيض المضى لدخيلة حياته ولكل إيمانه ولكل عواطفه وكل وجوده ، فإن قصور المناسبات الكبرى عن إلهام شعرائنا أكثر مما ألهم زلزال مسينا حافظ إبراهيم ، وموقعة أدرنة وانتصار الأتراك بعد الحرب الكبرى شوقى قصائده فى هذه الحوادث ، إنما يرجع إلى ضعف ثورة النفس وإلى هذه السكينة المطمئنة التى أشرت إليها ، وإلى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم .

وإلى أن تحدث هذه الثورة سيظل الشعر فى جموده ، وستظل المعانى الشعرية الصحيحة نادرة ، وستظل الأوزان الشعرية واقفة وقوف

الموسيقى والغناء . وسبيل هذه الثورة أن تظلم النفوس لحرية الإحساس والعاطفة كما ظمئت من قبل لحرية الفكر وحرية التعبير عنه . ولست أرجو أن يكون هذا الظلم شأن السواد وإن رجوت أن يتقرر حقه فيه . لكننا أرجوه للأفذاذ الذين يحملون على عواتقهم أعباء النهضات الكبرى التي لا طريق لها غير الثورة . هؤلاء الأفذاذ يجب أن يكونوا في حل من كل قيد للذهن أو للحس أو للشعور ، لكي يهديهم إلهامهم المذهب بكل ما أورثنا الماضي وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفن ، إلى المستقبل المستور بحجب الغيب ، والذي لا يفتح إلا لهؤلاء الأفذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه . فإذا وجد الأفذاذ ودفعهم الظلم للحرية إلى تحطيم القيود التي ماتزال تربط الشعراء في أكثر نواحي حياتهم ، وسمواهم بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد وشهواته ، وحلقوا ابتغاء إرضاء نفوسهم وعواطفهم وأذهانهم — إذا كان ذلك آن للشعر أن تتجدد معانيه وأوزانه وقوافيه ، وصار أداة صالحة للتعبير عما يجيش بالنفوس وتضطرب به الحواطر .

ووسيلة الشعراء إلى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية . تلك أن يطلب الشعراء الكمال لذاته لارغباً ولارهباً ، وأن يسموا فوق مطامع المادة ومزائق الذلة والخضوع لوضع الشهوات ، وأن يجاهدوا للتخلل من رق الإسار الذي ارتبطوا به مع الشعر العربي القديم . ولعلمهم إذا رجعوا إلى تطورات الشعر الغربي في العصور الأخيرة كان لهم فيه مثل . فقد أعلن رنसार مذهب بعث الأدب اليوناني والروماني في القرن السادس عشر ، ووجد هو ومن تابعه في هذا الأدب فيضاً ظل يلهمهم قرنين كاملين

لكنهم كانوا في ذلك ينقلون ذلك الأدب القديم من لغاته إلى لغتهم ،
فتبدو له جدة عند الجمهور الذي لا يعرف اللاتينية ولا اليونانية . فلما
كان القرن الثامن عشر انتفض الشعراء في أوروبا على هذه القيود
القديمة ، وأعلنوا حرية الشعور والشعر وساروا به الخطا الواسعة التي
بلغت الشأو الذي أدركه اليوم . وها نحن أولاء قد مضت علينا أجيال
ونحن مقيدون بالشعر العربي القديم معاني وأوزانا . أفما آن لنا أن تكون
لنا شخصية مستقلة ، وأن يعلن شعراؤنا حرية الشعور والشعر ، وأن
يقولوا بوحى نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحى الأقدمين إلهامهم ؟ ! أو
ما آن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك المستوى الذي تضطربهم إليه
ذاكرة الجمهور اضطراباً ، فيجذبوا الجمهور إليهم كارهاً بادی الرأي
ثم سعيداً بما أكره عليه بعد ذلك ؟ ! أما آن لهم ألا يتأثروا بتقليق الناس
وبحاجاتهم المادية ، فيكون شعرهم شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف
التي لا شعر فيها !

ولست كبير الرجاء في مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضي
على أن يغالبوا ما نشئوا عليه ، وأن يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه ولو
كان هذا الازدراء سبيل الكمال . فليس من اليسير على النفس أن تغير
من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع . ولست أدري أيستطيع
الناشئون اليوم إبداع هذا الذي أدعو إليه من الاستقلال ومن البحث
في ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها عصرنا الحاضر
في الحب والحق والشفقة والحرية والإيمان والشك ، ومن إرسال
خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة في هذه الشؤون كما تتغذى النحلة
من رحيق الزهر لتخرج للناس شهداً شهيماً . وكيف نثق بالناشئين ولما

يظهر منهم أحد مستقلا عن كبار شعرائنا مرسلًا إلى الناس من فيض شعره ما تبهرهم جدته وما تهزهم قوته وما يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير ما ألفوا ، ثم هم يرونه مع ذلك ذا جلال وروعة ؟

وإنما رجأؤنا أن تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه إياه على غير تلك القواعد القديمة التي كانت تبعث الجمود إلى الأذهان والقلوب والعواطف . وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أعناه على تقرير حرية الفكر ، وأن نوسع أمامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وأن نعرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار . فإذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا أن نأمل من بين هذا الجيل الجديد أولئك الأفذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة والذين يجعلوننا نحس إذ ننشد شعرهم بائتلاف جواب نعمته مع سائر أنعام الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى أنفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الأطلال يريد أن يبعث أمام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال .

متى وجد هؤلاء الأفذاذ آمن رافعوا لواء الشعر بأن من الواجب عليهم أن يقتحموا ميادينهم بروح جديد : روح غير هذا الروح الأثر الذي يحرص شعراءنا أكثر الأمر في دائرة ضيقة من عواطفهم الوقتية أو تفكيراتهم السطحية أو أخيلتهم القليلة الارتفاع ، وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط قدير على أن يخلق في جو العالم كله ويتصل به ، ملقياً عن كاهله حدود المكان والزمن ، مرتفعاً إلى

السموات العلا ، متصلا بالملائكة والشياطين ، ثأراً على كل عتيق بال ، متوثباً في ثورته لينتظم آلهة الإغريق والمصريين القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الأمم والعصور المختلفة في تخليقه وسموه ، مجاهداً لينقى ذلك كله ويصهره ويخلق منه في عالم الشعر خلقاً جديداً . وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا الروح ، كما أن غزو الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك ، كفيل بأن يدفع بالشعر إلى صدر النهضة ، وأن يجعل منه الأداة الروحية القوية التي تحطم الكثير من الأغلال ، وترتفع بالإنسانية في سماء الحرية والحب والحق والجمال .

وهذا الروح يجب له قبل كل شيء أن يرتفع بالشاعر عن شعر المناسبات إلى ما يصدر عن وحي الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر . ويجب أن تكون غايته تصوير الكمال في صور تستولى على نفس قارئها وسامعها وتطير بها على أنغام الشعر الموسيقية لترتفع فوق مستواها ولتبذ نفسها ولتحس معنى الكمال إحساساً عميقاً يشعرها بضرورة الدأب للجهاد في سبيله ، وتجعلها إذا قرأت شعراً يصور لها الكمال في الحب أو الكمال في الحرية أو الكمال في الأمل أو الكمال في الألم أو في أي ما شئت من معان وعواطف وأخيلة أثيرية الحدود دائماً الاتساق والاتساع ، شعرت بأن في الحياة معاني غير هذه المعاني التي يحيا الناس ويجعلونها غاية جدهم ومنتهى أملهم ، وشعرت بأن وجودها الحي بيننا يقتضى دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية . وكلما تنزهت هذه المعاني عن مناسبات الحاضر وبلغت في روعة تصويرها ما يرجي للكون كله من كمال ، كان الشعراً أكثر شعراً ، وأكثر أداء للغرض المقصود منه ، وأكثر تحقيقاً لرسالته السامية في هذا الوجود .

فن القصص

٧ تكاد القصة اليوم في الغرب تستأثر بالأدب المنشور كله . وهي ولا ريب تتقدم كل ما سواها من صور هذا الأدب . فالرسائل التي كانت ذات مكانة سامية في زمن من الأزمان قد اختفت أو كادت ، والقطع الوصفية القائمة بذاتها ، والمكاتبات الأدبية الطريفة الأسلوب ، وما إلى ذلك من أنواع النثر ، قد اندمج في القصة وأصبح بعض ما تشمله . وأنت إذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكاتب معروف كحديقة أبيقور لأناتل فرانس ، والحكمة والقدر لما ترلنك وغيرها من مثلهما ، لم تجد لهما في عالم الأدب من المكانة مثلما كان لرسائل مونتني في القرن السادس عشر ولبعض رسائل روسو وفولتير في القرن الثامن عشر . وأصحاب هذه الرسائل أنفسهم إنما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التي تجود بها قرائهم . ولم يذكركاتب في النقد الحديث أن كتابا من كتب الرسائل قد أثر في سيرة الجماعات تأثير قصة من القصص ، في حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة إميل في التريسة لروسو ، ولرواية فرتر الخالدة لحيثي ، ولبعض روايات فلوير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الأثر . بل إن كثيرين ليعترفون بأن القصة الروسية في العصر الأخير منذ تولوها دستويفسكي وترجنيف وتلستوى كانت ذات أثر بالغ في توجيه الحياة الأوربية كلها .

ويذكر مؤرخو الآداب أن فن القصص على الصورة المعروفة اليوم في الغرب فن حديث . لكنهم يذكرون كذلك أن القصص لذاته قديم يرجع إلى أيام اليونان وإلى ما قبل أيام اليونان في مصر والصين . من اليسير أن يقدر الإنسان قدم القصص وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت ، ثم تطور بعد ذلك في صور مختلفة إلى أن وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم في الغرب . وأقرب دليل على ذلك ما نشاهده من ارتياح الأطفال للقصص وإنصاتهم لها وعظيم استمتاعهم بها . كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثراً في نفس الجماهير أيا كان المدى الذي بلغته من الحضارة ، هو هذا النوع . وهؤلاء « الشعراء » الذين يذهبون إلى الأرياف وإلى مقاهي المدن يقصون حكايات عنتره وأبي زيد ودياب ابن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصي هذا مالا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب . والأطفال والدهاء هم صورة الإنسانية في بدء حياتها . وإذن فقد كانت هذه الإنسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها ، وقد كانت القصة من أول الصور للفن الأدبي ظهوراً فيها .

إلى جانب هذا الدليل دليل آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه . ذلك أن الحياة من أولها إلى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها . ثم إن حياة كل فرد من الأفراد تتكون في مجموعة من القصص الصغيرة أو الكبيرة . وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه بعد انقطاعك عنه أياماً أو شهوراً أو سنين ؟ أولاً يسأل كل منكماً الآخر عما فعل الله به أثناء انقطاعك ، فيقص عليه صاحبه ما حدث له في هذه الأثناء وما وقعت

عليه عينه أو اتصل به خبره ؟ والقصة بوصفها فنّاً لا تزيد على جمع هذه الأخبار التي يتحدث الناس بعضهم إلى بعض بها ، واختيار طائفة من بينها ، وخلق صورة حية منها تمثل عالماً خاصاً له مميزاته وأشخاصه وما وقع لهؤلاء الأشخاص من خير وشر وما أثروا في البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة .

ونحن واجدون من رواية التاريخ ما يعزز هذين الدليلين ويزيدهما قوة . ولسنا في هذه السبيل بحاجة إلى استقصاء تاريخ الأمم المختلفة في الأزمان العريقة في القدم . بل يكفي أن نرجع إلى التاريخ الديني وإلى الكتب المقدسة نفسها . فهذا التاريخ يقص على الناس من أخبار من تقدمهم ما فيه لهم موعظة وعبرة . والتاريخ نفسه ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ من خياله ما يسبغ على حياته قوة وفيضاً . كما أن القصة ليست إلا تاريخاً إن يكن أبدعه خيال كاتب أو أديب فهو إنما أبدعه من واقع الحياة . وكثيرون من القصصيين يلجأون إلى التاريخ يستلهمونه مادة قصصهم كلها . فوالتر سكوت في إنجلترا وإسكندر دumas في فرنسا إنما اتخذوا من تاريخ إنجلترا ومن تاريخ فرنسا مادة قصصهم جميعاً . وهم قد أسبغوا على هذه القصص من خيالهم قوة تجعلنا نتشكك إلى حد كبير في صحة كل الوقائع التي يروونها وإن كان خيالهم يزيد هذه الوقائع رواء وروعة عما كانت الوقائع التي حدثت بالفعل . ومن لا يلجأون إلى التاريخ من القصصيين إنما يلجأون إلى ملاحظة الواقع أمامهم وتدوين مشاهداتهم في قصصهم . وهذا نوع من التاريخ أيضاً . هو تاريخ الحاضر في حين أن السابق تاريخ الماضي . ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون إلى ما كتب في عصر من العصور من قصص وما وضع أهله من رسائل يستلهمون هذه

الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة من الجمعية التي عاش هذا الأدب بين أظهرها . هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قدم القصة . كذلك جعلنا نستشهد بهذا التاريخ أنه لم يرو ماروى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها ، وإنما رواها عبراً ومزدجراً . والرواية للعبرة والزجر تقتضى اختيار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبرة ، كما تقتضى صياغة هذه الوقائع فى الأسلوب القوى الذى يدخل العبرة إلى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن أن تفهمها . والقصص المؤرخون الذين يكتبون بهذا الأسلوب ولهذه الغاية يقيمون فنا من فنون الأدب ، ومن أسمى فنون الأدب .

ولقد اتهم الأدب العربى القديم خطأً بخلوه من القصص . وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس فى الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما فى تاريخ اليونان . لكن القصص كما أسلفت قديم ، وهو فى الحقيقة قوام الأدب العربى المنشور كله . وبحسبك أن ترجع إلى أى كتاب من أمهات كتب الأدب لتراه جامعاً بين دفتيه من الأقاصيص القصيرة ومن القصص الطويلة مالا شبهة عندى فى أن الخيال كان له الأثر الأول فى وضعه ، وأنه لذلك بعض فنون الأدب . ولهذا لا يصح أخذه حجة تاريخية على الوقائع التى رواها وإن صح اتخاذها حجة على نفسية الأمة الإسلامية فى الأوقات التى أنشئ هذا الأدب فيها واعتباره وثيقة وسنداً تاريخياً من هذه الناحية . وبحسبك أن تعود إلى كتاب الأغانى وإلى كتاب العقد الفريد وإلى كتب الأملى لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرام أو الحماسة أو

ما إليها من أنواع الرواية . ويتعذر على أن أعتقد أن الرواية التي يروونها عن حروب وائل وما فيها من الأشعار المنسوبة لجليلة وغير جليلة تمثل وقائع تاريخية . ولست بهذا أنكر وقوع هذه الحروب ، كما لا أنكر جمال الرواية التي رويت عنها ، وما للعرب في ذلك على التاريخ والأدب من فضل . لكنني أعتقد أن الرواية الأدبية الجميلة التي وضعت لهذه الحروب والأشعار التي وضعت على لسان أبطالها ، إنما وضعها أديب قصاص أراد بما خلعه عليها من روعة الفن أن يجعلها أعذب في النفس وأسلس مدخلا إليها . وهو في ذلك إنما صنع ما صنع هوميروس حين وضع إلياذته وأجرى فيها على لسان أبطال تاريخ اليونان ما أجراه من أدب رائع هو لليونان نخر لأنه من صنع هوميروس اليوناني ، وهو لتاريخ اليونان نخر كذلك لأنه يمثل بطولتها وشهامتها في خير صورة يمكن أن تمثل فيها . وكتاب الأغاني فيه من هذا القصص الأدبي البالغ ذروة الفن الشيء الكثير ، وإن لم يكن قد نسج على منوال القصة الحديثة ؛ لأن القصة الحديثة لم تظهر في الغرب نفسه — على ما يقول الباحثون استناداً إلى مؤرخي الأدب الغربي — إلا منذ قرنين اثنين .

✓ ولقد تطور الأدب القصصي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا في صور وألوان عدة . وهو لاشك سيتطور من بعد في صور وألوان عدة أخرى . ذلك بأن القصة تمتاز من غيرها من صور الأدب بأن ليس لميدانها حد إلا الخيال ، وليس لتطورها آخر إلا ما ينتهي إليه تطور الجماعات ، إن أمكن أن يكون لهذا التطور نهاية . فهي بعد أن تحررت من قيود الأدب اليوناني والأدب الروماني ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تطورت من الأدب الوجداني الذي

أنشأه (روسو) بقصته الكبيرة « هاليز الجديدة » إلى أنواع متعاقبة من الأدب أطلقت عليها أسماء مختلفة حسب الغاية التي يتوخاها القصاصون من قصصهم ؛ فسميت الأدب الواقعي ، أو الطبيعي ، أو النفساني ، أو التصويري ، أو الأخلاقي ، أو الفلسفي ، أو ما إلى ذلك من مسميات ليس من غرضنا هنا تحديدها ولا الحديث عنها . لكن ما لا ريبه فيه أنها كانت تمثل صوراً من ميول العصر وأخلاقه ونزعات أهله ، وبخاصة من يتجه هذا الأدب إليه منهم . فكما أن أدب القرن الثامن عشر كان يتجه قبل كل شيء إلى الذين تجمعهم الصالونات والذين كانوا يضعون العواطف والغرام فوق كل اعتبار آخر ، ولذلك غلب الأدب الوجداني فيه ما سواه ، وكما أن أدب القرن التاسع عشر كان أكثر ذيوياً بين طبقات الأمة وأكثر تأثراً بالمبادئ العلمية التي ظهرت في ذلك العصر ، ولذلك تخطى الوجدانيات الغرامية إلى تمثيل الواقع كما كتب « زولا » و « فلوير » و « موباسان » على اختلاف النزعة التي نزع إليها كل واحد منهم ، كذلك تخطى أدب القرن الذي نعيش فيه — والعهد الأخير من القرن التاسع عشر — الرياليسم والنااتورالسم ، إلى صور أخرى بدت مختلفة في أدب « لوتي » و « أناتول فرانس » و « بول بورجيه » و « جول لومتر » وغيرهم ، ولكنها تعبر جميعاً عن ميول العصر العلمية وعن الحرص على الطرق التحليلية في البحث ، وعمّا تدفع إليه هذه الطرق التحليلية في أحيان كثيرة من التشكك واللاأدريه . وها نحن أولاء نرى في وقتنا الحاضر الرواية النفسانية تتجاوز الرواية الإباحية ؛ لأن هذا العصر الذي تمحضت الحرب عنه لما يهتد إلى سبيل تتحد فيه الغاية وإن اختلفت فيه وجهة النظر ، وهو مدى يجمع بين المتناقضات ،

لعل احتسكا كما يثير منها شرراً يهديه الطريق إلى الحق وإلى السعادة بعد ما انبهم عليه هذا الطريق وبعد ما ضل فيه رشاده .

* * *

نستطيع أن نقول إن القصة تطورت في الأدب الغربي بما يجعلها تمثل عصوره المختلفة إلى عصرنا الحاضر . وإذا كانت لدينا بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور ، كما تمثل قصة حي بن يقظان التفكير الديني الحر في عصر ابن الطفيل ، فإن ما يُزكّى به الأدب العربي بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشيء الكثير . هي ولا ريب خرافة قوية لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن أساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة ، لكنها مع ذلك تمثل حالا نفسية لعصور لا غلو في تسميتها عصور التدهور . فكتاب « ألف ليلة وليلة » الذي جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب والذي لا يزال عند الأمم كلها يعتبر مصدراً من مصادر الأدب القوي ، لا يخلو في كثير من أجزائه من الخرافة التي كانت سائدة في العصر أو العصور التي كتب فيها . ومع ما فيه في كثير من الأحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الأسرة وحياة الجماعة تصويراً مضبوطاً قائماً على أساس من الملاحظة الصحيحة ، فإن ما يبلغه الخيال فيه من رسم صور الجن وأخبارهم ومن الحديث عما في الهند والسند وغيرها من آثار لم تعرفها الهند والسند إلا في مخيلة أصحاب هذا الكتاب العربي ، يدل على عقلية خاصة كانت تسيغ هذا النوع من التفكير وتعتبره مصدراً للحقيقة . فأما قصة عنتره والوزير سالم وسيف بن ذي يزن ورأس الغول وما إليها فدون ألف ليلة وليلة في خصب الخيال وإن كانت تزعم أنها تعتمد على وقائع التاريخ اعتماداً قصصياً ليست له

روعة ألف ليلة وليلة ولا قوته ، وهى مع ذلك تصور الحياة العقلية للعصور التى ظهرت فيها ، وتدل على ميول أهل تلك العصور ونوع حياتهم .

وقد تكون هذه القصص التى ذكرنا آخر ما نعرف من القصص العربى ، وهى على الأقل آخر ما نعرف من القصص الذى يستحق أن يضيع الإنسان شيئاً من وقته فى قراءته . ثم كانت بعد ذلك فترة ركود فيها القصص حتى فى صورته التافهة كما ركبت سائر صور الأدب . وقد لا يجازف من يقول إن القصص يحاول الآن استعادة حياته . على أن الأقاصيص الصغيرة التى تظهر من حين إلى حين والقصص التى لم يظهر بعد منها ما يعد على الأصابع ، ما تزال بعيدة عن أن تعدّ بعثاً لهذا النوع من الأدب . ذلك بأن القصة ، أيا كانت الحوادث التى تروىها ، إنما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى فى نفس كاتبها . لتكن هذه الفكرة تافهة ، وليكن المثل الأعلى وضعياً ، فهما على كل حال يترجمان عن غرض يتطلع صاحب القصة إليه . بل إن القصص التى تكتب للتسلية ليس غير ، والتسلية العامة لا الخاصة كالقصص البوليسية ونحوها ، لا يمكن أن تخلو من التعبير عن فكرة فى نفس الكاتب . فأما القصص التى تسمو فوق هذا المستوى ، وأما القصص التى تعد بحق أدباً وفناً ، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين فى صور مختلفة وألوان شتى . قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب ؛ فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة ويكونان لذلك هما الواضحين فيها ، كما ترى فى قصة حى ابن يقظان ، وكما ترى فى قصة إميل عن التربية لروسو ، وكما ترى فى قصص

الوزير الإنجليزي الكبير دزرائيلي الذي كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها مايجول بخاطره من صور إصلاح الجماعة الإنجليزية . وقد يكون قصد الكاتب إلى غير الفكرة . قد يكون قصده فنياً بحتاً . لكن كل إنسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على أن يبدع في الفن ، لا يمكن أن يلهم في فنه ما لم تكن له فكرة يرمى إليها ومثل أعلى يطمح إلى تحقيقه . فالأدب فن . وكل من لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى من أرباب الفن لا قيمة لفنه ولا بقاء . والقصة في الأدب العربي الحديث ما تزال أغلب أمرها تستلهم القصة الغريبة مقلدة إياها في صورتها غير صادرة في الوقت نفسه عن فكرة ومثل أعلى يحركان نفس صاحبها . وإذا كان التقليد في أغلب الأحيان مقدمة البعث ، وكان تقليد الأدب اليوناني والروماني مقدمة بعث أوروبا في القرن السادس عشر ، فإن البعث الصحيح هو الذي يقوم على فكرة ويلهم مثلاً أعلى . فنحن ، إلى أن نصل إلى التأليف القصصي القسائم على هذا الأساس ، إنما ننفع في حياة القصص روحاً تقليدياً صرفاً ، روحاً لا يسمى بعثاً حتى يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التي يخضع الكاتب لأثرها .

والحقيقة أن القصص على انفساح ميدانه وتشكل صورته وألوانه لا يكفي فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر في ظاهرات فن الأدب . لذلك كان الكتاب القصصيون الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئاً من التقديس من ذوي السعة في العلم والاطلاع إلى جانب ما لهم من موهبة الفن في التصوير

والأسلوب . هؤلاء يحرك اطلاعهم في نفوسهم الأفكار المختلفة ، وينتهى بهم تفكيرهم إلى مثل أسمى يطمحون إليه . وقد ينحو غيرهم ممن لم يمنح هبة الفن نحواً آخر في تدوين ماهدته إليه أفكاره وتصوير المثل الأعلى الذي يرجو أن تصل الإنسانية إليه . من بين هؤلاء الفلاسفة والحكماء . لكن الفلسفة غذاء جاف للسواد الأعظم من الناس ، فهم لا يسيغونه ولا يطبقون هضمه . أما القصة التي تحتوى هذه الفلسفة وتلك الحكمة فتشتملها على صورة غير تلك الصورة المطلقة الجافة . هي تحتويها بعيدين عن التجرد ملاسين للحياة في مختلف صور الحياة على ما يعرفها السواد بحواسه لاعلى ما يستشفها الحكيم والفيلسوف بمنطقه وبصيرته . هي ترسم الحياة على ما يراها ويحسها عامة أهل الحياة ، وترسم ما في الحياة من حقائق وما تصبو الحياة إليه عن طريق المثل الأعلى من كمال . . . وهي ترسم ذلك متصلاً بعواطف الناس ومشاعرهم وبالواقع المحسوس في الكون وبالمشاهد في الأفلاك وبما سوى ذلك مما لا يستعصى على الإدراك ولا يحتاج لانتقطاع خاص ولدراسة خاصة قد يحولان بين الشخص وبين أن يدرك كثيراً مما في الحياة غير ما انقطع له واختص به .

وقد حدث طبيعة الفن القصصى هذه ببعضهم إلى القول بأن الأدب إنما يعبر عن أنصاف الحقائق ، على حين تعبر العلوم وتعبر الفلسفة والحكمة عن الحقائق عريانة واضحة في جميع نواحيها . ولست أدري هل التعبير عن الحقيقة الكاملة مما يدخل في باب الممكنات وما نحن أولاء ما نزال نرى العلم يهدم مقررات العلم نفسها الحين بعد الحين ، كما أنه لا يفتأ يهذب هذه المقررات في آونة متقاربة . على أنه إن صح أن الفن يعبر

عن أنصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة ، فإن مافي طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن القارىء من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم ، قد يكشف له أنصافاً وأنصافاً من الحقائق تجلوه الحقيقة كاملة آخر الأمر . وبعد ، فهل يستلهم الفن غير العلم في آخر صورته ؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته ؟ هذا إلى أن الفن كثيراً ما يسبق العلم إلى الكشف عن الحقائق ، وكثيراً ما يصل إلهام الفنان إلى ما تضطرب أمامه أدوات العلم عصوراً وعصوراً قبل أن تصل إلى إقرار ما كشف الفن عنه . وإن كثيرين من العلماء الجنائين وغير الجنائين ليرون في كثير من روايات شكسبير أقباساً من إلهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزغ الخيال في الماضي ، ثم انتهى العلم إلى الاعتراف بصحتها ودقتها . من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل ويده ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجي نفسه بأن مافي الأرض من بحار والغيث يمدّها بتهتانه لا تكفى لتطهير يده من الدم . كم رأى الناقدون في هذا من عبث الخيال حتى أثبت العلم الجنائي صحة ما ذهب إليه شكسبير من أن الجاني لا يحرص ، في فزعه مما اجتاحت يده ، على ستر آثار جنايته في حين هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار . كذلك قل عن همّلت وجنونه ، فقد أثبت العلم ما بلغه إلهام شكسبير من توفيق لم يصل العلم إليه إلا بعد مئات السنين من بعد شكسبير . فإذا قيل مع هذا إن الأدب إنما يعبر عن أنصاف الحقائق ، كان لنا أن نقول إن الأدب ، والفن القصصى بنوع خاص ، هو الكفيل بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق ، كما أنه طليعة العلم في استلهاهم الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها .

وللفن القصصى إلى جانب ذلك فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة ؛ فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر بل من الموسيقى نفسها إلى التقاط صور حياة الجماعة التى يعيش فيها وإثباتها على الورق . ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة فى المستقبل وتصوير المثل الأعلى التى تصبو إلى تحقيقه .

وكم من قصص خيالية حاول أصحابها فيها أن يصفوا حياة الجماعة على ما يجب أن تكون ، وأن يصوروا المدينة الفاضلة ، اذا نحن أردنا أن نستعير عبارة الفارابى . وكم من قصص أريد بها التهذيب والتعليم . وكم من قصص غيرها قصد بها إلى مختلف الأغراض مما يجعلك فى حل من القول بأن مكان القصة من الفن الأدبى يتناول نواحي هذا الفن الأدبى جميعاً كما يلهم الفنون الأخرى أجمل إلهام وأسماء .

مع أن هذا شأن القصة وهذه مكانتها من آداب الأمم المختلفة فانها ما تزال فى أدبنا العربى فى حال من الركود ، حتى لنكاد نقول إنها لم توجد . فالقصص التى كتبت فى نصف القرن الأخير تعد على الأصابع . وإذا كان أدب الأقصوصة قد انتعش فى السنين الأخيرة فانه ما يزال فى بداءته من ناحية ، والأقصوصة شئ والقصة شئ آخر فى فنون الأدب من ناحية أخرى . فما هى العلة فى ضعف أدب القصص وفى فتوره وركوده ؟ هذا ما يتناوله بحثنا فى الفصل التالى .

باب فتور القصص

ينشر الأستاذ «جب» ، الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية في لندن دراسات مستفيضة باللغة الانجليزية عن الأدب العربي الحديث . وقد تناولت هذه الدراسات النثر العربي والشعر العربي وسائر فنون الأدب العربي الحديث في هذه الفترة الأخيرة من حياة مصر الأدبية ، كما تناولت تطور الأدب في القرن التاسع عشر وتأثره بادیء الأمر بالآداب العربية القديمة وبشعر الجاهلية وعصور الإسلام الأولى بنوع خاص ، ثم تأثره بعد ذلك بالآداب الغربية ، وبالآداب الفرنسية والانجليزية بنوع خاص . وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب ، وأشار إلى أنها لم تتأصل بعد في الآداب الغربية ، وتكلم في هذا الباب عن قصص شوقي وعن « عيسى بن هشام » للمويلحي وعن روايات جورجى زيدان التاريخية ، ثم وقف وقفة خاصة عند « زينب » وقال إنها الأولى من نوع القصص الحديث ، وتحدث بعد ذلك عن « إبراهيم الكاتب » للأستاذ المازنى ، وأشار إلى قصة « الأيام » التى قص فيها صديقنا الدكتور طه حسين فصولا من حياته تشعر وأنت تقرأها بأنك تقرأ عواطف فياضة تنتقل إلى نفسك وتنطبع فيها فتعجب بها إلى جانب إعجابك بالألفاظ وموسيقاها وجمال نظامها أشد إعجاب .

ووقفه مستر « جب » عند فنون القصص والرواية في الأدب العربي ليس بالشئ العجيب ، وليست هي الوقفة الأولى من جانب من تصدوا لدراسة فنون هذا الأدب في عصرنا الحاضر . فكثيرون من المستشرقين ومن الكتاب المصريين أنفسهم ، وقفوا هذه الوقفة متسائلين عن السبب في عدم ذبوع هذا الفن من فنون الأدب سواء في الشعر أو في النثر ، في حين هو قد يقف من الأدب العربي في الذروة من كل فنونه . والحق أن هذا الإقلال الغريب في فن القصة والرواية يدعو إلى العجب وإلى الدهشة ، وهو كذلك بنوع خاص في مصر . فلمصريين في تاريخ الأدب القصصى مكان كريم ؛ إذ يرجع إليهم — على أرجح الروايات — فضل « وضع ألف ليلة وليلة » وكثير من القصص المتداولة اليوم والتي كتبت في عصور سابقة لم تصل دراسة الأدب إلى تحقيقها تحقيقاً مضبوطاً . ثم إن حب الرواية والقصص في الطبيعة المصرية ، حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية الكثير منها لأبنائهم وذويهم وأصدقائهم في الكثير من أوقات فراغهم . وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع حولنا حتى تنهم الحياة المصرية بأنها قاصرة عن إلهام هذا الفن إلهاماً قوياً . ومسارح القصة في الطبيعة المصرية كثيرة ، كما أن لهذه الطبيعة من الجمال وتعدد صوره وألوانه ما يعاون الكاتب على أن يخلق لقصصه مختلف البيئات ذات الأثر في إلهام عاطفة من العواطف أو مأساة من المآسي أو مهزلة من المهازل . فكيف ، وهذا هو الواقع ، يكاد الأدب العربي الحديث يخلو من القصة ؟ وإلى أي سبب يعزى هذا النقص المريب في فن مكائته من فنون الأدب المكانية الأولى ؟

يحاول بعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين ، أن يعزو
السبب في هذا النقص إلى ضعف في الخيال يحول بينه وبين تأليف
مجموع القصة . وإلى مثل هذا السبب يعزو أولئك الكتاب اقتصاراً أكثر
كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة . وما أحسبني في حاجة
إلى الإطالة في إدحاض هذا الزعم بأكثر من الإشارة إلى ما يقوله
كتاب الغرب وساسته طعنا على الشرق بأنه خيالي ، وبأنه لذلك لا يقدر
الطريق العلمية في البحث ولا في سياسة الدولة . وكيف يمكن أن يكون
الشرقي خيالاً وضعيف الخيال في وقت معاً ؟ ولم يكون خيالاً في العلم
والسياسة حيث يكون الخيال مفسداً ، ثم يضعف خياله في الفن القصصي
للأدب حين يكون الخيال المتصل بواقع ما في الحياة هو المرشد الأول
لإتقان هذا الفن ؟ أليس هذا كافياً للدلالة على أن الاتهام بالإسراف
في الخيال وبضعف الخيال يقصده في الحالين إلى الطعن والتجريح
لغايات لا ترضاها الحقيقة ولا تعاون على حسن تفاهم الأمم بعضها مع
بعض ، وأن الغرض الحقيقي منه تثبيت الإيمان في نفس أمم الغرب بأنها
متفوقة على الشرق في كل شيء تفوقاً يجعل من الحق لها أن تحكم أمم
الشرق هذه وتستغلها من غير أن يكون في ذلك اعتداء على ما للأمم
من حق في الحرية والسعادة ؟ وليس أدل على أن هذه هي الغاية
الحقيقية من تلك الدعاية التي يلبسها أصحابها ثوب البحث العلمي
والتاريخي والتي يؤيدون بها ما يدعيه بعض ساسة الغرب من أن الأقدار
ألفت عليهم عبء تحضير أمم الشرق وتمدينها ، على حين أن مطاعمهم
هي التي ألفت عليهم عبء العسف بأمم الشرق والاستبداد بشؤونها .
ويعزو كتاب آخرون السبب في نقص فن القصص والرواية في

الآداب العربية العصرية إلى اختلاف ما بين لغة الأدب ولغة الكلام
اختلافاً يجعل قراء الأدب الراقى قليلين إلى حد يفت في عضد الكتاب
ويصددهم عن المضي في سبيلهم . وفي هذا السبب ظاهر من الوجاهة .
لكنه لا يعدو أن يكون ظاهراً في اعتقادنا . فإن فن القصص في الأدب
الغربي يرجع إلى أول أيام « البعث » الأوربي في القرن الخامس عشر .
وفي ذلك العصر كان بين لغة الأدب ولغة الكتابة اختلاف لا يقل عن
الاختلاف الموجود اليوم في اللغة العربية بين لغتي الكلام والكتابة .
مع ذلك ازدهرت حياة الأدب في أوربا ، وكان للقصص والرواية مكان
رفيع منذ القرن السادس عشر ، بل منذ القرن الخامس عشر في إنجلترا .
فهذا السبب وحده لا ينهض إذن حجة للنقص الذي يلاحظه الكل في
شأن القصة والرواية العربية اليوم . ولا بد أن يقترن به سبب آخر لم
يكن موجوداً في الغرب على حين هو موجود في الشرق ، وهو الذي
يدعو إلى تثبيط هممة الكتاب عن القصة والرواية . بل لعل هناك
أكثر من سبب واحد كما سنشير إليه من بعد .

ويجب كذلك أن نهمل ما يتهم به بعضهم كتاب مصر والشرق
العربي من الميل إلى الكسل ومن قلة الإنتاج . فكثيرون من الكتاب
المصريين ليسوا أقل خصباً في الإنتاج من أكثر كتاب الغرب إنتاجاً .
لكن إنتاجهم لا يتجه كله إلى ناحية القصة والرواية ، بل يتوزع مجهودهم
في نواح شتى ، إذا هي جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهود
وما يؤدونه إلى لغة بلادهم وآدابها من خدمة . وما أظنني مغالياً إذا أنا
قلت إن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقاً فيه من كثير من
كتاب الغرب . كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب في بعض

أم أوروبا المختلفة . ويكفى أن يرجع الإنسان إلى آثارهم ما نشر منها وما لم ينشر ، ما جمع منها وما لم يجمع ، ليقنع اقتناعاً صادقاً بأنهم يقومون ، في هيئة لا تقدر عملهم التقدير المشجع ، بمجهود الجبارة ، ثم لا يبتغون من ورائه جزاء ولا شكوراً . ما هو السبب الصحيح إذن في فتور الأدب العصري عن القصة والرواية ؟ أو بعبارة أدق ما هي الأسباب المجتمعة التي أدت إلى هذا الفتور ، وبخاصة في مصر حيث الميل إلى القصة أصيل في النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر ؟ أثرت إلى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر في القصة والرواية ليس إلا سبباً ظاهراً لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر ، وبخاصة أنه لم يحل في أول «البعث» الأوروبي دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب . والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف إليه أكثر من سبب آخر ، ليكون بعض ما يمكن الاحتجاج به على هذه الحالة التي استوقفت نظرمستر «جب» واستوقفت من قبله أنظار كثيرين . وأول سبب يجب أن يضاف إليه ذبوع الأمية وعدم انتشار التعليم في الشرق انتشاراً كافياً . فهذه الأمية الذائفة تحول بين الجمهور وقراءة القصص كما تحول بينه وبين الاستماع لها مع تقدير ما تحتويه من فنون الأدب ، لجهل الجمهور بهذه الفنون من جهة ، ولأنه لو استمع لها لمازاد ذلك انتشارها بما يعوض صاحبها العوض المادي الذي يشجعه على المضى في كتابة ما يوحيه إليه خياله قصة بعد قصة . وقد يكون ذبوع الأمية من الأسباب التي تسرع إلى الزوال مع سير حركة التعليم الجديدة بهذا النشاط العظيم الذي تسير به في بلاد الشرق جميعاً ، ومع نجاح المجددين في جعل أساليب الكتابة بعيدة عن

ذلك التعقيد الذي كان يعتبره أسلافنا المباشرون ، ومن لا يزال منهم من يعيش بين أظهرنا ، مقياس البلاغة والدليل على الاقتدار في الفن . لكنه ما يزال باقياً وما يزال من آثاره هذا الفتور الذي يقعد بالكتاب عن متابعة السير في فن القصص ، ويعدل به إلى ناحية أخرى من الكتابة أجدى عليه وإن لم تكن أجدى على الأدب نفسه .

يضاف إلى ذبوع الأمية فتور الأغنياء عن معاضدة الأدب كله ، وعن معاضدة الأدب القصصى بنوع خاص . وهذه المعاضدة هي التي شجعت كتاب أوروبا في القرون التي تلت «البعث» والتي كانت كعصرنا هذا غير باردة بالكتابة وبالكتاب . فإلى لويس الرابع عشر يرجع أكبر الفضل في بقاء الشعر الخالد الذي خلفه راسين وكورني وموليير ولافونتين . وإلى معاضدة الأغنياء يرجع الفضل فيما خلفه روسو وفولتير وديدرو وهلباخ وغيرهم من كتاب القرن الثامن عشر . وأحسب عذر أغنيائنا عن فتورهم هذا أنهم لا يجدون من السيدات دافعاً إلى هذه المعاضدة . فقد كان لسيدات قصر لويس الرابع عشر الأثر الأكبر في معاضدة كبار شعراء العصر وكتابه ، ولسيدات صالونات الأدب الكبرى في القرن الثامن عشر الأثر الأكبر في حماية كبار كتاب ذلك العصر وتشجيعهم . ومع ما كان يتهم به بعض أولئك السيدات من الخفة والطيش ، فإنهن قد أدین لبلاذهن أجل خدمة بما ظهرن به معاضدات لفن من أرقى الفنون وأجلها . ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ما وجد كتاب القرن السابع عشر من معاضدة لويس الرابع عشر ، ثم لو أنهم وجدوا من حماية فضليات السيدات وعظفهن وتشجيعهن ما وجد أولئك وما وجد كتاب القرن الثامن عشر من بعدهم ،

وما يزال الكتاب يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر الذي نعيش فيه ، إذن لرأيت الأدب العربي ، ولرأيت الأدب القصصى بنوع خاص ، يجد من صور الإلهام ما لم يعرف حتى يومنا هذا ، ولوجدت فيه نشاطاً وجدّة وإبداعاً وفيض خيال ما أظن الغرب يستطيع أن يسابق الشرق فيه ، بل أجزم بأنه إن استطيع أن يسبقه إن هو حاول مسابقته .

ولا أريد لأى اعتبار من الاعتبارات أن أضعف من خطر هذا السبب من أسباب فتور الأدب كله ، وفتور الأدب القصصى والروائى منه . فلم يكن أثر السيدات هو الذى حفز الأدب فى الغرب وحده إلى نهضة كبرى كالتى نهضها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بل كان كذلك هو الذى حفز الأدب دائماً فى كل الأمم وفى كل العصور . ولن تعوزنا الأمثال إذا نحن رجعنا إلى العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وفى أيام عظمتهم وازدهارهم . وليس من المطلعين على الأدب العربى واحد لا يعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن على بن طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبي عليه السلام من أثر فى الأدب وإنهاضه وتشجيعه . هذا ، ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل وإن كانت منفردة بين ضربياتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها أقرب اتصال بالنبي العربى . وليس فى ذلك من عجب . فالقصة والرواية إنما تصور الحياة تصويراً صادقاً تملئها العاطفة ويحلله العلم . ولا سبيل إلى هذا التصوير الصادق ما لم تشترك المرأة فيه بوحىها وإلهامها ، وما لم يتصل هذا الوحي والإلهام ليجددا نفس الكاتب أو الشاعر وليدفعها إليه حياة فنية جديدة كلما آذنت قوته بالفتور أو الضعف . وهذا الوحي والإلهام من جانب

سيدات
الأدب

نصف الإنسانية الثاني هو في كثير من الأحيان خير عزاء عما يفقده الكاتب أو الفنان من ربح مادي ، بل فيه دافع إلى التضحية بهذا الربح المادي في سبيل الفن مادامت أدوات هذا الفن كاملة .

وهذا في رأينا هو السبب في أن كثيرين من الذين يكتبون قصصهم في الشرق يقفون عند القصة الأولى ، يروون فيها تاريخ عاطفتهم الأولى حين كان الشباب ما يزال كافياً يدفعهم إلى تخليد هذه الصفحة من صفحات حياتهم ، فإذا وقعت لهم بعد ذلك تواريخ عاطفية أخرى ولم يكونوا قد وجدوا التشجيع من ربح مادي أو رعاية عظيم أو تشجيع سيدة مهذبة تعرف كيف ترتفع بهم إلى مافوق الاعتبار الثانوية فتقوى ضعفهم وتلقى عنهم غبار فتورهم ، نزعوا إلى الناحية التي يرونها أوفر كسباً وأكفل بالشهرة وبالمجد ، وإن تكن شهرة سريعة الانطفاء ومجداً مقضياً عليه بالزوال .

وما دمت قد أشرت إلى السيدات وأثرهن في الأدب ، فيجب أن أذكر في جوارهن أن ضعف أدب القصص والرواية كضعف استمتاعنا بالحياة استمتاعاً كاملاً ، يرجع إلى عدم تربية عواطفنا تربية صحيحة ، مع أن هذه التربية الصحيحة هي التي تكفل للعواطف حسن الاستمتاع بالحياة في أجمل صورها وأكثرها سموً وسناء ونوراً ، وتكفل لذلك ازدهار أدب القصص والرواية ازدهاراً لا سبيل إليه في حياة ناقصة متبدلة العواطف إلى حد يجعل أهواء المرء وشهواته تحل من نفسه محل هذه المشاعر السامية ، فتعذب به وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها ؛ لأنها لا تكشف له من جوانبها إلا عن الفساد والنقص ، ولا تدفع إلى نفسه حب الحياة حباً صحيحاً . وكل فن لا يصدر عند صاحبه عن حبه

لجانب من جوانب الحياة لا يمكن أن يزدهر . وفن القصص أكثر من
سائر الفنون حاجة لحب صاحبه الحياة ؛ لأن القصص صورة الحياة .
وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أتمثل أمام عيني صوراً
نراها كلنا كل يوم وقد نمر بها مستخفين غير آبهين لها أو واقفين
عندها في حين هي ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا إدراكنا إياه
لتغير نظرنا وتصرفنا . وقبل أن أقف عند العاطفة التي تتصل بالعريضة
الجنسية في نظر كثيرين لأعالجها بشيء من التحليل يكشف عن النقص
الذي أشير إليه ، أود أن أقف قليلاً عند عواطف أخرى أمتحنها بشيء
من المقارنة لتبين للقارئ الغاية التي أرمى إليها ، ولتتضح أمامه الفكرة
التي قدمت . ولنبدأ بعاطفة الإحسان ، وأقصد البر بمعناه العام السامي .
فأنت إذا دعوت إلى اكتتاب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خير أيا
كان ، وكنت موضع ثقة الناس جميعاً ، ألفت مع ذلك ضعفاً في الإقدام
لا تغلب عليه في كثير من الأحيان إلا الإلحاف وإلا مطامع شخصية
يرجوها المحسن من وراء إحسانه . فكثيرون لا يقدمون إلا رجاء رتبة
ينالونها أو أملاً في مصلحة عاجلة أو مؤجلة تقضى لهم . هذا على أنك
ترى في إنجلترا مثلاً كثيرين يتبرعون بألوف ومئات الألوف لأعمال
الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم ومن غير أن يطلب إليهم أحد إحساناً .
بل يأبى كثير من هؤلاء أن يعرف اسمه ، ويكتفي أن يضع المبلغ تحت
تصرف هيئة موثوق بها تتولى إنفاقه في وجوه الخير التي يقررها هذا
المحسن المحبوب . ثم إن العاطفة لداتها نامية عند الجمهور الإنجليزي نمواً
تعبط إنجلترا عليه . فمستشفيات تلك البلاد تدفع نفقاتها من الإحسان
العام يشترك فيه الناس كافة من طبقات الأمة كلها بغير تمييز بين

في قصة الإحسان

بائع الصحف والتاجر الصغير والمثري الكبير . وهؤلاء جميعاً يدفعون إلى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب خاطر ، بل مع الشعور بالغبطة لأداء واجب يؤمنون في أعماق نفوسهم بأنه فرض يؤلمهم عدم أدائه .

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموها في الأمم الأخرى ، لكان أداؤنا واجب الإحسان صادراً عن عاطفة تامة النمو كاملة الشعور تنغص علينا الحياة إذا هي لم تؤد هذا الواجب أداء كاملاً .

وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا مثل عاطفة الإحسان سواء . وكثيرون منا من يمرون بحيوان ضعيف سقط إلى الأرض قد هده الإعياء ، أو بأخ لنا من بنى الإنسان هوى به الشقاء فألقى به مضجعاً على قارعة الطريق ، فلا تتحرك في نفوسهم عاطفة ، اللهم إلا أن تكون حمداً لله على ما أنجاهم من مصاب كالذى تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين . والذين يصنعون هذا رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذبت فيهم عاطفة الرفق ، ما تكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق في نفوسهم فتدفعهم إلى النجدة . فإذا فرغ أحدهم من نجدة الحيوان أو الإنسان المستحق لها ، لم ينتظر من أحد جزاء ولا شكوراً ، وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره إلى أنه أدى واجبه الذى تمليه عليه عواطفه .

وأستطيع أن أعرض بالمقارنة لكثير من العواطف غير ما قدمت . على أنى أود أن أشير إلى بعض العواطف الأولية التى يردّها الكثيرون ، ومن بينهم بعض العلماء ، مرد الغرائز . تلك عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الأبوة والبنوة . وما أحسبني أغلو إذا أنا قررت

عاطفة
الرفق

أن الحب عندنا ما زال قريباً جداً من الغريزة الجنسية ، محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهجه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه . فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المذهب إليها ، فأما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك التام في تمثل الحياة قوة وجمالاً وسناء ، فأما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقى النفساني إلى عالم الخير والجمال والحق فنخلع من كل ما في هذا العالم على نفس أخرى نحاول من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما في الحياة من رضا ونعيم ، فذلك ما قل أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده إنسان . هذا ، ولوربيت العاطفة وهذبت وسمت إلى المكان الذي تستطيع إن هي حاولت أن تسمو إليه ، لرأينا في الحياة غير ما نرى اليوم ، ولشعرنا بأننا نستطيع أن نقص من مشاهداتنا فنوناً من الأدب هي القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا بما يجعل عواطفنا كلها هزيلة أنانية لا تستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز إلا بمقدار ضئيل .

وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السمو إلى المكان الإنساني الجدير حقاً بها أن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدة عما يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل ليسمو بالجيل الذي يليه في عواطفه كما يسمو به في علمه وعقله ، بحيث يدفعه لقطع شوطاً جديداً في طريق الكمال . وإن كثيرين يشعرون بأن الصلات المادية كثيراً ما تكون ذات أثر في هذه العواطف القوية التي يجب ألا تتأثر بشيء من هذا ، حتى لقد يعقّ أبناء آباءهم . وقد يحقد آباء على أبنائهم لغير شيء إلا لصلات مالية كان الطبيعي ألا تخضع لها عواطف مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار .

ما هو السبب في ضعف تربية العاطفة وفي نقصها هذا النقص المريب ؟
تعود كثيرون أن يقولوا إن السبب في ذلك يرجع إلى تربية البيت
لا إلى شيء آخر . وهؤلاء يريدون أن يقيموا حداً فاصلاً بين التربية
والتعليم ، بحيث لا يلقون على المدارس والجامعات أية تبعه عن هذا
النقص . وعندى أن هذا غلو فاحش . وبطلانه يزداد وضوحاً كلما
ارتفع مستوى التعليم وسمت الغاية التي يقصد إليها من العلم . فقد كان
العلم عندنا إلى زمن قريب وسيلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير ،
فكان بذلك صناعة من الصناعات التي يتلقاها الناس ليكسبوا من عرق
جبينهم بها ما يقوتهم ويقوت عيالهم . وكان الكثيرون من المتعلمين
لا يزيدون لذلك على صنع أدواتهم القانون لرجل القانون ، أو الشرط
للطبيب ، أو ما إلى ذلك من الأدوات لغير هاتين الطائفتين من المتعلمين .
وكان ذلك واضح الاثر في حياة تلك الطوائف التي يسمونها تجوزاً ،
طوائف المتعلمين . فأنت لم تكن تكاد تخرج إلا بالقليل منهم عن
النطاق الضيق الذي يعمل فيه لكسب قوته ، وإذا به قاصر العرفان
إلى حد مخجل ، وإذا بك تستطيع أن تقول في غير غلو أو مبالغة إن
القانون في يد رجل القانون والطب في يد الطبيب مثله كمثل الفأس في
يد الزارع والمنشار في يد النجار ، لافائدة منه لهذيب النفس أو العقل ،
وإنما الفائدة كل الفائدة لكسب العيش . فأما الذين يندون عن هذه
القاعدة ويقصدون من العلم والتعلم إلى غاية أخرى ، فأولئك شواذ
موهوبون لهم فضاهم كما لهم ما تقابل به العدالة الطبيعية الفضل من
نقص في نواح أخرى . وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن
يقصد به إلى الحق لذاته أو الجمال لذاته ، ولم يكن أمام المتعلم مثل أعلى

غير الأنانية الوضيعة ، أنانية كسب العيش ، فمحال أن تسمو عواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار ، ومحال أن يحس بالحاجة الملحة إلى السمو نحو مراتب الإنسانية المهذبة الدائمة الطموح إلى الكمال . وقد كان يظن إمكان التعويض عن هذه الحال في المدارس المدنية ، بتعليم أسمى غايةً في المدارس الدينية ، أو بعبارة صريحة في الأزهر والمعاهد التابعة له . فالدين بطبعه داع إلى الكمال ، دافع إلى استدامة البحث للوصول إلى الحق ، ليؤمن صاحبه به عن معرفه مُوزعة بعمل الخير ، وبتهذيب العواطف الدافعة له إلى غاية حدود التهذيب . لكن الواقع يشهد بأن التعليم الديني عندنا ليس فيه شيء من هذا على الإطلاق ، وأن غايته هو أيضاً إعداد رجال الدين ليكون العلم الديني صناعة في أيديهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر . وأنت إذا قصدت إلى حلقات الدرس في المعاهد الدينية لم تكد تسمع للمعاني السامية التي نزلت الأديان لتثبّت الإيمان بها في النفوس ذكراً ، بل رأيت كل هذا العلم الديني مقصوراً على تدريس العبادات والمعاملات بصورة مادية جافة ، لا تخاطب القلب ولا تتصل بالروح ، ولا تفقه معنى الكمال ، ولا تتطلع إلى جناب الله ، ولا ترجو من الحياة إلا أن يفتح الله عليها من أبواب الرزق وألا يقتر عليها فيه .

الغاية من التعليم في المعاهد الدينية كالغاية إذن من التعليم في المعاهد المدنية ، لا تتصل بالعاطفة ولا تعنى في قليل ولا كثير بأى شيء له بها عن قرب أو بعد صلة . وهذه الغاية لا تتوخى الحق ولا تريد النور ، ولا تحاول أن تصل بين الإنسان والحياة وكل ما في الوجود ، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة ، غاية ملء البطن وبلوغ ما يمكن بلوغه

من الترف . في مثل هذه الحال يصح ألا يكون مخطئاً من يقول إن
 تربية العاطفة من عمل المنزل ، وإنها ليس لها بالتعليم أى اتصال . لكن
 هذه الغاية الوضيعة لا يجوز أن ترضاها أمة غاية للعلم فيها ، بل يجب أن
 تكون غاية العلم أسمى وأنبل من هذا بكثير . يجب أن تكون تهذيب
 العقل وتهذيب الروح والنفس بهدايتها إلى الحقيقة التى يجب أن تكون
 مطمئح نظر كل متعلم . والعاطفة حقيقة يجب أن يجلوها العلم في مختلف
 صورها كما يجلو كل حقيقة أخرى . وهذا هو الواقع في بلاد العالم
 المتمدن كلها . وكل شيء جلالة العلم تهذيب وسما ، حتى المادة الجامدة التى
 لا حياة فيها ، والتى تحتوى مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبأ بها حتى
 كشف العلم عنها وجعل منها مهذباً لهذه المادة الجامدة . فإذا سمت
 غاية العلم على هذا النحو كان قميناً أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية
 العاطفة فى الإنسان تربية أساسها اشتراك الإنسان باعتباره فرداً مع الجماعة كلها
 ومع سائر ما فى الوجود للكشف عن الحق ولعمل الخير ولتجلية الجمال .
 ولست أقصد إنكار ما للتربية المنزلية من نصيب كبير فى تهذيب
 عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب فى تهذيب ذوقه وروحه .
 لكننى أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو ما يحاول
 بعضهم أن يفعل ، أمر غير ممكن . وتربيتنا فى معاهد العلم إنما تكمل
 من بعد تربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة . وهذه السلسلة
 المتصلة تجعل لتعليم الآباء فى دور العلم أثراً فى تربية أبنائهم فى البيت
 قد يعادل الأثر الذى يحصل للأبناء عليه من بعد فى دور العلم .
 ونحن إذا أردنا البدء الصالح المثمر وجب علينا أن نلتزمه فى دور العلم
 أولاً بالسمو بغاية العلم إلى التماس المثل الأعلى على نحو ما قدمت . يومئذ

تسمو نظرتنا للحياة ، وترتفع عواطفنا فوق الغرائز حتى تقرب من الكمال ، ثم نورث ذلك أبناءنا بتنشئتهم عليه في البيت ثم في دور العلم ، فيكون لذلك أثره في الحياة فتسمو سموًا يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعاً وأكثر فيها سعيًا وإنتاجاً ، ثم يكون له في الوقت نفسه أثره في بعث القوة والنشاط إلى فن القصص والرواية من فنون الأدب ؛ إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقيًا وتهذيباً ، فكانت بذلك أقوى إلهاماً لرب الفن بما يطوع له أن يجد في متباين صور العواطف المهدبة ما يدعوه إلى كمال فنه .

⑤ يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور ويدفع إلى الانصراف عن الكتابة وعن الأدب . ذلك ما لا يزال متحكماً في أخلاق الشرق من الميل إلى هدم كل رجل ذي قوة وموهبة ، وهدمه لأسباب لا صالحة لها البتة بقوته وموهبته . فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف معنا في الرأي السياسي أو ينافسنا في صفقة من الصفقات أو يثقل علينا ظله ؛ إذن يجب علينا هدمه أمام الجمهور وإن اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . وما دمنا لا نستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر .

وكثيرون ، مع شيء كثير من الأسف ، يضعفون أمام هذه المهاجمات غير الشريفة ، ويرون فيها جحوداً لجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم ، فيعدلون عن متابعة سيرهم وينزعون إلى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم وأكفل بحياة أكثر طمأنينة ودعة . وإذا كان من بين الكتاب من لا يخجل بهذا الجحود ومن يشور في نفسه الضياء الذي ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار

ليفيض منه على الحياة ما يزيد بها جمالا ونوراً ، وليؤدي للفن الرسالة التي ألقى القدر عليه أداءها ، فإن صاحب الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الأنصار والمؤيدين أن يرى في حياته تمام النجاح لرسالته ، وإن كان هذا النجاح قد كفل لها ولو بعد موته . ولو أن خلق الهدم خفت في النفوس وطأته وحل محله التقدير النزيه لثمرات الأقلام ، لقوى ذلك من هذا الضعف الذي يلاحظه الكثيرون في القصة والرواية في الأدب العربي .

(٢) ولا نستطيع أن نهمل عاملاً آخر كان له أثر في الجناية على الأدب . ذلك هو العامل السياسي . فقد كان من نتائج الحرب والحركات التي قامت بعدها في الشرق والغرب أن انصرفت الأذهان عن التأمل في الحياة وجمالها إلى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة ، أو لتنظيم شؤون اقتصادية زعزعت الحرب أركانها ، أو ما إلى ذلك من الشؤون العاجلة . ومن طبيعة هذه الشؤون أن تلفت الناس إليها وتبهرهم عن كثير سواها . وهي لهم أكثر لفتاً وبهراً إذا هم رأوا من ورائها لأشخاصهم مكانة أرفع ، أو مجداً أشد بريقاً ، أو رخاء ورغداً لم يكونوا يطمعون من قبل فيه . وهذا العامل الذي شمل العالم كله كان أبعد أثراً في الشرق ؛ لأن الحرب بعثت إلى الشرق هزة عنيفة أيقظته من سباته وفتحت عيونه على نواحي الحياة المختلفة المتباينة ، فجعلته من أجل ذلك في شيء من الحيرة أى طريق يسلك ، ثم كان الطريق الأول والأقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه . وهذا التخلص يقتضى نضالاً لا يقل قوة ولا خطراً عن نضال الحرب بين الأمم المسلحة . فكما تستنفذ الحرب جهود الأمم كلها ، كذلك استنفدت وتستنفذ هذه الثورات السلمية كل جهود أمم الشرق ، وتدفع بالكتاب والأدباء إلى أن يضعوا

قواهم ومواهبهم في خدمة بلادهم . وقد جزتهم بلادهم عن ذلك بما زادهم تشجيعاً عليه وحرصاً على المضي فيه . وهم ما يزالون كذلك حتى اليوم ، وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم إلى مدى يتعذر اليوم تحديده .

هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذي أوتي موهبة في فن القصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له . بل لقد صار كل ما يستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الأقصوصة تلو الأقصوصة في أوقات فراغه . فأما أن ينقطع لدراسة موضوع يكون قصة أو رواية كاملة فقد يقتضيه ذلك السنين الطوال . وقد ينتهي به الأمر إلى ألا يتم قصته إذا كان بدأ فيها . والتخصص في القصص كالتخصص في كل عمل من أعمال الحياة ، هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة للخصب في الإنتاج وللوصول إلى الثمرة الصالحة الجيدة . وهو كذلك بنوع خاص في عصرنا الحاضر الذي انفسح فيه ميدان العلم الإنساني إلى حد أصبح معه المحيط بهذا العلم كله محيطاً بقشور قليل ما يتصل بها من اللباب ، والذي أصبح كذلك بحيث يصبح الإنسان بعد دراساته العامة ، وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات في المدارس والجامعات ، في حاجة إلى التوجه في الناحية التي يملئ عليه ميله التوجه إليها فيتخصص فيها ، بل في فرع من فروعها . وقد يعجب قوم إذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصصي والروائي قد أصبح لذاته فسيحاً إلى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب في أحد فروع له لتعذر الإحاطة بفروعه كلها إحاطة يتيسر معها الإتقان والاقتراب من الكمال . لكن الأمر في الواقع هو هذا . وأنت إذا عدت إلى أ كابر الكتاب القصصيين وإلى أ كابر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعاً

خاصا يمتاز به ويغلب عليه حتى يعرف به . فأنت ترى في بورجيه غير ما تراه في أناتول فرانس ، وغير ما تراه في زولا ، وغير ما تراه في فلوير ، وغير ما تراه في موباسان ، وأولئك كلهم من القصصيين الفرنسيين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي هذا الثلث الأول من القرن المئتين العشرين . وأنت ترى لكل واحد منهم ميداناً خاصاً يمتاز به وتخصص فيه وقصر مباحثه على التعمق فيه وعلى معرفة ما سبق به إليه في العصور الأخرى وفي الأمم الأخرى . وهذا التخصص هو وحده الذى يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال فى ميدان الأدب والفن ، كما أنه هو الذى يجعلها ترجو بلوغ الكمال فى ميادين العلم المختلفة .

ولا يعترض علينا بأن كثرة القصصيين وغزارة المادة التى يأخذون عنها فى أوربا هى التى تؤدى بهم إلى هذا التخصص ، على حين أنا ما زل فى حاجة الى الإنشاء حتى ليدعونا ذلك الى تقليد الغربيين أكثر مما يدعونا الى الظهور بشخصية متميزة لنا فى عالم التأليف والأدب . فهذا الاعتراض على وجاهته الظاهرة ضعيف متداع بطبعه ، وهو إن حدث عن شئ فإنما يحدث عن ميل إلى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب فى القصص والرواية تكويناً سليماً . وقديماً قيل مثل هذا القول فى الطب والمحاماة ، فظلت الصناعتان ضعيفتين فى مصر حتى تخصص الأطباء كل فى فرع من فروع الطب ، أو فى بعض فرع من فروعها ، وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازته فى ناحية المعاملات المدنية ، والآخر فى المعاملات التجارية وهلم جرا . وإذا كان مظهر التخصص فى الطب أوضح ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهوراً ، فذلك لأن الحكم والقاضى فى شؤون الطب هى الطبيعة

التي لا تخطيء أبداً . وحكم الجمهور في الأدب كحكم الطبيعة في الطب وفي الميكانيكا وفي كل ما هو غير خاضع لأخطاء الإنسان وشهواته . وكما نجح الطب في مصر نجاحاً يقر له الكل في مصر وفي غير مصر منذ تخصص الأطباء تخصصاً تاماً ، فإنني لا أرتاب لحظة في نجاح الأدب القصصي والروائي إذا عاينت العوامل الكتاب والموهوبين منهم بنوع خاص على التخصص فيه ، أو إذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التي تنكلم العربية بعاقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديرًا صالحاً عظمة الرسالة التي يحماونها ليلغوها إلى مواطنهم وإلى العالم كله ، فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التي أشرت من قبل إليها ولم يتأثروا بشيء منها حتى يصددهم عن السبيل التي تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمال .

على أن انتظار جود الطبيعة بالنابعة الفذ الذي يستطيع أن يعظم كل القيود ويتغلب على كل الصعاب ويتخطى كل العقبات ، ليس من شيمة الأمم التي تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربي لتبوأ المكان اللائق بها في زمرة الأمم ، بل الواجب على الذين يشعرون بمن يقرءون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف والفتور التي ذكرت ، أن يقدرُوا الواجب العظيم الملقى على عواتقهم ليمهدوا لرجل الفن في القصص والرواية طريقه ويسروا سبيل نجاحه . وكل واحد منهم ، رجلاً كان أو امرأة ، يتحرك ضميره فيدفعه لأداء هذا الواجب ، يقدم لبلاده أجل خدمة ويبقى في التسارع منذ كوراً ما ذكر الكتاب والقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا المعاضدة أو التشجيع أو الوحي منه . والذين

يقرءون تاريخ الأدب في بلاد العرب حين كان الأدب مزدهراً ، والذين
يقرءون تاريخ أدب الغرب في العصر الحاضر ، يرون كيف اقترنت
أسماء أنصار الأدب والعاملين لإحياء نهضته بالأدباء والكتاب أنفسهم
وبالنوايع والأفئذ منهم بنوع خاص . وهذا جزاء وفاق وحق يجب
أن يؤدي إلى هؤلاء الذين يعززون الأدب بنصرهم وبتأييدهم . وإنى
لعملى يقين ، إذا وقع هذا الذي أدعو إليه ، من أن ترى مصر وبلاد
الشرق نهضة للأدب في زمن وجيز يكون لها في مصر وفي بلاد الشرق
بل في العالم كله ، أثر يهز الأبصار ويخطو بالشرق كله خطوات واسعة
في طريق البعث الذي بدأ منذ زمن ليس بالقصير . إذ ذلك تثبت خطاه
وتزداد سرعة وسعة عما كانت منذ حفزته الحرب الكبرى إلى أسمى
معانى المجد والعظمة والحرية .

التأليف المسرحي

ليست لغة المسرح هي ما أقصد أن أتكم عنه ، وإن كان الناس قد ألفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدارجة أو لغة الكلام وبين اللغة الفصحى أو لغة الكتابة ، وأيهما أصح لتكون لغة للمسرح . وليست ترجع رغبتى عن هذا البحث إلى استهانة منى بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نفذ كله . وإنما ترجع من ناحية إلى أنى أميل إلى الحرية المطلقة ، فلا أرى أى ضير فى أن يكتب مؤلف مسرحى باللغة الفصحى ، وآخر باللغة الدارجة ، وبأية لغة دارجة من مختلف اللهجات التى نسمعها فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية ، والتى تصل لهجاتها أحياناً إلى أن تصير رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يكلم العربية . وترجع من ناحية أخرى إلى اعتقادى أن هذا لخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه إلى الزوال . فإن انتشار التعليم فى البلاد المختلفة انتشاراً سريعاً يقضى على الأمية ، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن يجعل اللغة التى تكتب الصحف ويكتب الأدباء هى لغة الحديث ولغة الكتابة فى وقت معاً ، مع فوارق بسيطة لا يقيم لها وزن ، ويومئذ تصبح لغة المسرح كما تصبح غيرها من اللغات هى اللغة الفصحى فى متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التى تكتب هذه اللغة فيه . فإذا أراد مؤلف بعد ذلك أن يختار لقطعة مسرحية

لهجة دارجة كان ذلك تأثقاً في الفن لا بأس به . ونحن في هذا كغيرنا من الأمم . فأنتم تسمع في إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لهجات في الشمال تختلف عن لهجات الجنوب ، لكن لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع من غير أن يحول ذلك دون قيام مؤلف متأنق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية من النواحي .

على أن هذا الحل لمسألة التأليف المسرحي من ناحية اللغة لن يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث ، كما كانت لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات ماضية . هذه المشكلة هي اللغة القديمة والشعر القديم ، وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية الحاوية لطائفة من القطع التمثيلية مكتوبة بهما . وقد أثير هذا البحث من ناحية عملية حين ترجم الأستاذ خليل مطران بعض روايات شكسبير في لغة عربية فيها من الفخامة والجزالة ما يتفق مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة في عصرنا . وهو قد أثير حين وضع شوقي بك روايته الشعرية « مصرع كليوباترا » ورواياته التي جاءت بعدها ومثلت على المسرح ، فكانت صورة جديدة من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل . على أن هذه الإثارة العملية للبحث لن تكفي ، فيما أظن ، لسد حاجات اللغة على وجه يرضى أقطابها . وأعتقد أن البحث سيثار من ناحية نظرية أيضاً ليعرف : أمن الواجب أن يوجد في القطع المسرحية العربية نوع من « الكلاسيك » الذي يصل الحاضر بالماضي ، أم نحن نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل . وسيتصل هذا البحث وسيتفرع إلى بحوث أخرى ، منها : أيجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى بلاد العرب

فتصل البلاد التي تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وثقافتها وبآثارها وتعاليمها ، على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين ، أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى صلة كل أمة بماضيها ، فترتبط مصر بالقراعنة ، وطرابلس (برقة) بقرطاجنة ، وبلاد الشام بفينيقية ، وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها ، وتجعل منها وحيّاً للأدب يتقصد منه إلى إحياء الأدب العربي في ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة ؟

أحسب أن هذا البحث سيثار عما قريب ، وبخاصة حين تخرج المدرسة الجديدة من طلاب الأدب الذين يدرسونه اليوم على طريقة علمية صالحة . على أن هذا البحث ليس هو أيضاً غرضي من هذا الفصل عن التأليف المسرحي . وإنما أقصد منه إلى ما يجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحي ، من ناحية أنه فن من فنون الاجتماع ، من موضوعات . وقد دفعني إلى تناول هذه الناحية من المسألة ما قرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب . فهذه القطع كلها ، أو الكثرة الظاهرة منها ، تتناول صور التطور الذي اتجهت الإنسانية بعد الحرب وبسببها نحوه . وكلها ، أو الكثرة الظاهرة منها ، تحاول توجيه تيار هذا التطور بهذيب شذوذه ورده قدر المستطاع ليندفع في الناحية الطبيعية ، أي في الناحية الأكثر على الإنسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها في ظل الحضارة الغربية الحاضرة .

من بين ما تتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ما خلفته الحرب من أثر في شأن الرجل والمرأة واتجاه كل منهما في الحياة ونظرتيه إليها وعلاقة كل منهما على أثر ذلك . فقد كان من أثر الحرب

أن أصبح الرجل غير ميال للعمل المتصل والكدح المستمر ، بل صار ميالا للمخاطرة والمجازفة يلتمس من طريقتي الثروة وبعد الصوت ورفيع المكانة ، كما كان إبان الحرب يلتمس من طريقتها الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة . أما المرأة فقد ألفت الحرب عليها أعباء ثقالا خلال أربع سنوات متتالية ، فكانت في الدار الأب والمربي والمجد لرزق البنين والبنات والعامل لرفاهية الأسرة كلها ، وكانت خارج الدار العامل الذي لا يمل في الإسعاف والتمريض وفي العمل والمصنع . لذلك أفادت من الحرب حرية بمقدار ما حملت من عبء التبعة ، وازدادت شعوراً بقوتها على الحياة بمقدار ما استطاعت أن تكافح لها ولدويها ولوطنها في الحياة . وهي اليوم تحاول أن تستبقي هذه القوة وتلك الحرية بإزاء الرجل ، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما . أما هو فقد أصبح يعتبر المهجوم سبيل النصر ، واتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة ، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء . على أن هذه الصفات الجديدة التي كسبتها الحرب الرجل والمرأة لم تنزع بطبيعة الحال ما فطرا عليه من سلائق وعواطف تضطرب بين جوانحهما وتجيئ بها دخائل وجودها . لهذا اضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطرابا أشار الكتاب والاجتماعيون إليه ونظروا مبهوتين يلتمسون الوسيلة إلى القضاء عليه . ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردها إلى أصولها وإظهار الجماهير عليها ، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . وقد لفت نظري في هذا التحليل استفزاز عاطفة النبل والكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة في سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر

الحرب دأوه . فهاته فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها في الحرية ، يحبها رجل في مثل تهذيبها وتثقيفها ، ولا تشعر هي نحوه بمثل العاطفة التي يشعر هو بها نحوها . ذلك بأنها وضعية المنبت ، وهي تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها . ويتصل بها شاب من المستمتعين بألقاب الشرف ، أو من الدوات إن شئت تعبيراً مصرياً ، فترى هي في علمها وشهاداتها ما يوازي شرفه ، فتتعلق به وتود لو تكون دوقة ، جزاء لها على ما أنفقت في تعلمها . لكن الدوق لا يعنيه العلم ولا يهيمه التهذيب ولا يطمع في أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة . ويذكر لها صديقتها المتعلم الذي يحبها ، أن الدوق لا يعنيه علمها ، وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت إحدى نجوم السينما أو إحدى ملكات الجمال . ورغم تقززها من أن تظهر في هذا المظهر فإنها تنتهي بأن تعرض نفسها في معرض الجمال وتصبح مس فرنسا ، فس أوروبا ، فس العالم . هنالك يجن الدوق بها ويخطبها ويحدد موعد العقد عليها . لكنه قد أضاع ثروته ، فلا بد من أن يستفيد من ملكة الجمال في العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوروبا ويصبح وإياها نجمي مسرح أو نجمي سينما . هنالك يثور شرفها وتثور كرامتها وتثور بها التعاليم التي تلقاها ، فتعلن في الصحف أنها انتحرت ، وتذهب إلى صاحبها الأول تعرض عليه ما حل بها من كارثة ، وتنتهي بأن تصبح زوجاً له تعيش معه في ركن ضيق من الأرض تتمتع بنعمة الأمومة وسعادة الزوجية بعيدة عن المغامرات المخجلة المزرية بكل علم وكل كرامة .

وتلك فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها في الحرية ،

تزوجت رجلاً مقامراً يريد الثروة والغنى العاجل ، فيضارب في البورصة فتصيبه الخسارة تهوى به إلى حضيض الجريمة ، ثم يعلم أن زوجه هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة ملايين مثلها . وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة التي لا ترمى إلى مثل أعلى ولا تطمع في غير المال تحتبله بكل الوسائل ومن مختلف الطرق . وزادها سأمًا أن أصبحت أما ، وأن صارت تخاف أن يفسد هذا الغارق في حضيض المادة كل المعاني الانسانية في نفس ابنته . ثم كان ابن عمها الذي ورث مثلها ورثت قد وهب نفسه للفقراء والمحتاجين : يقوم على تربية أبنائهم وحسن توجيههم في الحياة إلى أسمى ما في الحياة . فلما علم بما ورث أبي أن يقتضيه لأنه لم يكن نقي المورد إذ كان لحالة ساءت زمنًا ما سيرتها . وأعلنت الأم البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التي لها هي أيضا ، فجن جنون زوجها وذهب يلتمس عون ابن عمها كي يردها عن عزمها . وبعد لأي قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها وتسليمها ابنتها . فلما تمت الصفقة صاحت مبهجة : لقد باعني ابنته ! ووقفت حياتها على ابنتها تربيتها تربية سليمة وتوجهها إلى مثل أعلى .

ليست تقف موضوعات التأليف المسرحي عندهذا النوع من الإصلاح الاجتماعي . على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب الاضطراب النفساني والاجتماعي الذي خلفت الحرب لتظهر الجماهير عليها كي تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . ثم هي تتناول كذلك أنواعا أخرى لعل الفن وحده هو صاحب الإملاء فيها . على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانباً من الحياة

كما يراه الناس ، وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد . ثم إنها في كل حال تتناول جانباً من الحياة على ما نراها ونحسها ، فتجعلنا لذلك نرى صورة الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع تمثل على المسرح . قد يكون هذا الجانب تافهاً ، وقد يكون ضعيفاً ، وقد لا يرى البعض أن يتوجه إليه بأية عناية خاصة . لكنه على كل حال من الحياة التي نحيا ؛ فهو لذلك يمسننا من ناحية الحس أو الشعور أو التفكير أو العقيدة ، ويحرك فينا واحدة أو أكثر من هذه النواحي بمقدار قل أو كثر . وفي اعتقادي أن هذا هو الأهم الأول للمسرح . فأما ما يكون فناً للفن من غير أن يكون ماساً بالحياة ، فمن صور الكمال المستحبة ، وما يجب أن يفكر الكتاب المسرحيون فيه تفكيراً جدياً ، ولكن مع هذا الاعتبار دائماً ، وهو أن هداية المسرح الجماعة في الحياة يجب أن تنال أوفر حظ من العناية ، ويجب أن تكون عند رجال المسرح في المكان الأول .

حاول بعض الكتاب المسرحيين في مصر ، وفي مقدمتهم المرحوم محمد تيمور ، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة إلى الناحية الأكثر على الإنسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها ، فانتزعوا من وقائع الحياة في مصر صوراً أبرزوها على المسرح لتمس من الجمهور بعض نواحي الحياة ، ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة . ولست أحاول أن أحلل أو أنقد بعض هذه القطع . لكن هذا المجهود الصالح لم يصل إلى غايته ولم تتداوله الأيدي بمقدار تتجلى معه من الحياة نواح كثيرة ، فتوجه في نفس المطلع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور إلى الناحية المراد أن يتجه إليها . ولعل لا أغلو إن

قلت إن كثيراً من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التي تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الأثر في النفس قويا عميقاً لا يتبخر ولا يزول بعد مغادرة المشاهد المسرح بسويغات . قد يذهب بعضهم إلى أن جانباً كبيراً من اللوم في هذا يقع على الممثلين الذين لا ينقلون إلى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله إليه من صور الحياة ، ولا يوجهون هذا الجمهور إلى ما يريد المؤلف أن يوجهه إليه ليندفع تيار تطوره إلى ناحية خاصة . لكنني أعتقد من جانبي أن المؤلف جدير بمقدار من اللوم أكثر من الممثل ، وهو جدير بكل اللوم أن كان واجباً عليه هو أن يختار الممثل الذي ينقل قطعته المسرحية إلى الجمهور . وأكبر ظني أن لو اختيرت الموضوعات من واقع ما تضرب به الحياة اختياراً يجعل الموضوع لذاته قويا أخذاً ، لكان هذا الاختيار نفسه جديراً أن يسمو بالممثل إلى ما لا تسمو به إليه القطع التي تمثل اليوم والتي تعتمد أكثر أمورها على الخيال البعيد عن قوة تصوير ما في الحياة التي نرى ونحس .

نعم ! فإن كثيرين من كتابنا وممثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة في إبداع ما لا تستطيع الحياة إبداعه . وأنت أكثر ما ترى على مسارحنا مآسى ومهازل منقولة عن اللغات الأوربية . والغرض من أكثرها لا يعدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال ، والتي تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي المعجب والمطرب ما يعوض عليها قصر خيالها . وهذا الضرب من التأليف ومن التمثيل أقرب الضروب إلى ما يرغب الأطفال عادة في مشاهدته في خيال الظل و « القرا كوز » ونحوهما . وإذا كان هذا النوع من الفن مما يثير إعجاب البعض فهو في نظري

ليس بالفن ، الذى يؤدى للحياة رسالة الفن الجدير باسم الفن ، والذى يتصل بالحياة ويسبقها فى تصوير سبيل الكمال لها وفى تشذيب ما بها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير فى سبيل الكمال هذه . وهذا الفن هو الذى ندعو إلى دراسته وإلى جعله موضع التأليف المسرحى .

وليست هذه الموضوعات بالتلميلة أو التافهة فى مصر . بل إن مما تنقل الصحف السيارة من أخبار وحوادث قد نمر عليها من غير أن تقف تطلعنا عندها ، ما يجدر بالناية والدراسة والبحث ، وما يصلح خير صلاح ليكون قطعاً تمثيلية إذا أتقنت من ناحية التأليف كانت من خير ما أخرج للناس فى مختلف البلاد والأمم . لكن العناية والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود . وقد أصابتنا الحرب بما أصابت به أوروبا من السعى للفرار من كل مجهود متصل مضن ولكنه عظيم النتيجة عميق الأثر .

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذى أصابنا فى نواح كثيرة منها ناحية التأليف المسرحى ؟ وهل للمؤلفين المسرحيين عندنا أن ينظروا إلى هذا الفن نظرة جد ، وأن يعتبروه جديراً بمجهود ماثرب منتج ؟ وهل لكتابنا الذين يعنون بهذه الموضوعات أكثر من عنايتنا والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر مما نعرف ، أن يكشفوا عن الأسباب وعن وسيلة التغلب على الضعف واستشارة مقدمات القوة ؟ إن النجاح فى هذا وما قد يكون أثرآله من النجاح فى التأليف المسرحى خلىق بأن يوجه تطور الأمة توجيهاً صالحاً لم توفى حتى اليوم له . وهذه غاية سامية جدرة بأكبر الرؤوس وأنضج العقول .

الأدب القومى

عرفت يباريس فى ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت هى وأمها بالنزل الذى كنت به وأقامت فيه أسبوعين ، ثم غادرت هى وأمها إلى ألمانيا فى واحدة من تلك الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل الغزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء فى صالون متصل بغرفة المائدة ، نتحدث أو تعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع على البيانو أن كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويكات بينى وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالإنجليزية لأنها لا تجيد الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب « زينب » ، وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجد فيه من آثار أو هام طويلة عريضة . وعرفت مس شلرك كاسلز ذلك من أمرى ، وعرفت مما كان يرد إلى من صحف مصر أنى أكتب فى بعضها . فلما كانت الليلة التى اعترمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى ، فقالت :

— كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ إنجلترا . إننى وإن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلاً ، وأن تاريخها وآثارها جديران بالكشف

عنهما وتقريهما للناس في الصورة القصصية المحببة إلى النفس .
ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى .

ولم أفعل ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارئ في الفصول
الأخيرة من هذا الكتاب . لكنى أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من
قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه ، وإن
لم يظهر وحيا في آثار حياته ، كان الأدب فاتراً ضعيفاً ؛ لأنه لا يصف
الواقع ولا يجلو الحقيقة . وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه
أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع على
أكل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي أنبتتنا
والوراثة السكينة فينا ، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا ، ونصور بذلك
حياتنا وحياة قومنا ووطننا وكل ما توحى هذه الحياة للعقل والقلب
والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس إلى مصر في سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين
شهراً أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوروبا . وعدت عن طريق سويسرا
وإيطاليا ، وركبت البحر من برندزى إلى بور سعيد ، وكانت هذه
أول مرة رأيت ذلك المرفأ المسمى . وما أزال حتى اليوم أذكر
ما أثارته موازنتى بينه وبين مدن أوروبا من رغبة عنه وحرص على
مغادرته . فلما ركبت القطار إلى قريتنا وتزلت منه في محطتها وامتطيت
الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا ، وسرت على هذه الطرق
وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتى واستمتع بها صباى ، نسيت
أوروبا وريفها وأهلها وكل ما فيها ، وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر
في أرجائها السعادة ، ووجودى يكاد يظفر من فرط الطرب ، وأحسست

كأنى عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار ، وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب في التربة ، وبكل ذرة من هذا الهواء ، هواء قرينتنا الصغيرة الجميلة . فلما انتهيت إلى بيتي وأهلى لم أستطع أن أحبس إحساسى فتركته يطفر فرحاً سعيداً ، وشعرت بما فى ذلك كله من وحي صادق لمن أراد الكتابة عنه .

وفي سنة ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ وكنت أنتقل فى ربوع الشام ، إذ مررت بمعرة النعمان ولم أقف عندها . مع ذلك تمثلى لى فى تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء وارتسم أمامى تمثاله وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته ، وألقيت قطعة من شبابى ترسم أمامى بقوة ووضوح ، وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتى . إذ ذاك سألت نفسى : إذا كان هذا شأنى ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث محص ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديق الدكتور طه حسين « ذكرى أبى العلاء » ، فماذا تكون الحال بالقياس إلى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعاً فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم ؟ ألا يكون ذلك مصدر إلهام لهم أصدق الإلهام ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحي ؟ ! والإلهام يكون ولا ريب أسمى كلما كان أوثق اتصالاً بوطن الإنسان وقومه . والأدب الذى يصدر عن هذا الإلهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدباً قومياً صادقاً .

وكما يسمو وحي الوطن بالكاتب فى الأدب القومى ، فإن هذا الأدب يخلع على الوطن فى نفوس أهله جميعاً جلالاً وبهاءً يزيدانهم له

حبا وبه إيماناً وتقديساً وإياه إعزازاً . ولقد كان للأدب القومى وللفن القومى فى كل الأمم أعمق الأثر من هذه الناحية . وضعف أدب مصر وفنّها القومى له الأثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك أذكر أننى زرت روما غير مرة . وكنت ككل مقيم بروما أو زائر لها أنخطى « نهر التبر » مرات . وفيما أنا أنخطاه يوما ذكرت أبياتا من الشعر الإنكليزى حفظناها حين كنا بالمدارس الثانوية ، فيها قصة لبطل لم يحضرنى اسمه كما لم يحضرنى اسم الشاعر صاحب القصيدة . ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر إلى أن يلقى بنفسه فى النهر أم كان أراد مهاجمة خصوم لروما فى الجانب الثانى من « التبر » فرمى فيه بنفسه ليعبره ساجحاً . ولم يعنى من أمر القصة كلها شيء ، ولم أجهد ذاكرتى لاستظهار شيء منها . وإنما عنتنى الأبيات التى قالها البطل ساعة ألقى بنفسه فى الماء ، وعنتنى فيها نعمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« أيها التبر ، يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده ، إليك حياة رومانى وعدة حربيه خذهما اليوم فى رعايتك » . ذكرت هذه الأبيات وألقيت على النهر نظرة طويلة ، وجاهدت كى أجد فيه ما يبعث لى نفسى مثل القداسة التى كانت وما تزال تلك الأبيات التى حفظت صغيراً مبعثها عندى . وأعترف أنى لم أصل من جهادى إلى شيء ؛ لأننى لم أحاول إجهاد ذاكرتى لأستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان ، ولأجد فيه هذه القداسة التى أشاد البطل الرومانى بها على لسان الشاعر الإنكليزى . لكنى مع ذلك ما أزال أرى فى هذه الأبيات نفسها قداسة تجذبنى إلى ناحية التبر ، وتدعونى إلى أن أستشف من مجراه ومن تاريخه ما أوحى

للمثمين من الشعراء والكتاب القصائد والصحف الخالدة .

وليس نهر « السين » في اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر في اختراقه روما . لكنني إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر في أعماق نفسي بما يجعلني أشارك هؤلاء الشعراء في محبة نهر باريس وإجلاله . ذلك أنني عشت إلى جوانب السين سنوات ، وعرفت من مجراه وتاريخه ، وكان لي فوق لجته ما يجعل له في حياتي أثراً يدعوني إلى الاشتراك في شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه ، وإلى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعر ونثر ، وبكل ما تقع عليه عيني من صور لأما كن فيه ، وبخاصة إذا كنت قد قرأت عنها شيئاً يجعلها في حكم ما عرفته بنفسى .

وشهدت في سويسرا جمالا وروعة جعلاني أقرأ ما كتب عنهما لأزداد لهما تذوقاً وبهما سروراً . وأشهد لقد كنت ، كلما تزايد ما قرأت ، أشد لجمال سويسرا وروعيتها حبا . وليس في شيء من هذا كله أى عجب ؛ فكلنا أكثر بالجمال في مختلف صورهِ استمتاعا كلما كان معنا رفيق يشاركنا في المتاع . والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدراً وبدقائقه معرفة . فأنت في صحبة شاعر أكثر استجلاء لما في منظر من مناظر الطبيعة أو في حادث من الحوادث من شعر . وأنت في صحبة موسيقار ترى بعينيك أنعاماً يثيرها في الجو جمال الصور . وأنت في صحبة مصور تحس بما في الشعر وما في الأنعام من صور رائعة واضحة الحدود . ما بالك إذا كان ما تقرأه في قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقي فيه الفنون الجميلة كلها !

أنت إذن تود لو تعود إلى هذا المنظر . وأنت إذا عدت إليه واجد ولا ريب فيه حديثاً أشهى وأعذب من حديثه إليك قبل أن تقرأ عنه ما قرأت ، وقبل أن تسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت إلى مصر من روما في العشرة الأخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩ وأتيح لي يومئذ أن أشهد فيها منظرآ لم يتح لي المتاع به منذ سنوات ، ذلك منظر النيل في فيضانه . وأتيح لي أن أشهد هذا المنظر في أروع صورهِ وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان النيل من العظيمة والرهبة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام . وما كادت عيني تتمع على النهرحق تحركت في نفسى كل عواطف الإكبار والتقديس ، وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها بالأقصر وأسوان والسودان ما زادني بحماله وجلاله وروعته شعوراً ، وما وصل بهذا الشعور بين نفسى ونفوس أجدادنا الفراعنة الأقدمين الذين كانوا يرون في « البحر الأعظم » معبودهم الذي أتاح لهم الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما منحت لي الفرصة أذهب إلى شواطئه أملاً ناظري وقلبي وجوانحي إعجاباً به وتقديساً له ودعاء أن يكتفى من فيضانه بما يغمر البلاد من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون هي وأهلها من المغرقين .

وأفضيت يوماً بنحوالج نفسى إلى صديق من الذين زاروا أوربا وتنقلوا في مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها في تبين صورهِ واختلاف أوضاعهِ ، وذكرت له عميق شعورى بجلال النيل مما لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادى وبين شوامخ جبالها الساحرة

السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والنلج غطاء يزيد في روعة جلالها بما يجعلها دأمة التغير والتوج كلما تغير الجو وتموجت السحب . وتبسم صاحبي ضاحكا من قولي معتقداً أنى أمرح ، ثم كرر هذه الأنشودة التي نسمعها دائماً وقد نكررها أحياناً : وماذا في مصر من جمال ؟ وماذا لطبيعتها من روعة وهي ليست إلا مسطوحاً من الأرض يُملأك تشابهه الذي لا يعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكا ؟ وكيف تقرن هذا الوادي المحصور بين الصحارى الجدباء المحرقة إلى سويسرا جنة الله على الأرض ، أو إلى إيطاليا مهد الفن والجمال ، أو إلى أى بلد يكفيه دلالة على جماله أن ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن ، في حين لم تلهم مصر أحداً ؛ إذ ليس في تشابهها ما يلهم شعراً أو يقيم فناً !

ليس صاحبي هو وحده ، مع شيء كثير من الأسف ، الذي يفكر هذا التفكير أو ينظر إلى بلاده تلك النظرة الخاطئة المملوءة غروراً وعقوقاً ، بل إن الأكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون بإعجابهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال في أوروبا زهوهم بما تبعثه مناظر بلادهم إلى نفوسهم من ملال . ثم إن كثيرين ممن لم تتح لهم أسفارهم وقرءاتهم المفخرة بهذا الزهو ليحدثونك في أبلغ الإعجاب بجمال صحراء العرب وما أُنجبت هذه الصحراء من حب وحماسة وكرم تجلى في الشعر العربي القديم ، وليزهون بهذا زهوهم بملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التي تسمى جماعة المتعلمين في مصر . وقد يكون لهؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتاباً ولا رجال فن . وأنه لم يحرك أحد في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة في نهرهم

وواديههم وفي صحارى بلادهم وواحاتهم المنقطعة النظير في بهر روعتها
وسحر جمالها وقداسة جلالها . لكن العجب من أولئك الذين نسميهم
شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعروا أكثرهم إزاء
ما في بلادهم من جمال مثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين
في مصر . فقل منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حد يهز
شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفسه صيحات صادقة كلها
تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم
أو خيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس إلى أن يلقي بنفسه في غمار
التبر متغنياً ! « أيها التبر ، يا أبانا التبر ، يا من يسبح الرومان بحمده ،
إليك حياة روماني وخدمة حربه خذها اليوم في رعايتك » . بل إن
أحدهم ليحس أحياناً بأن من الواجب عليه أن يتحدث عن بلاده وعن
تاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة
ما يخلبك ، ولكنك تجده خلواً من الشعور الصادق والإحساس العميق .
وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق وإحساس
عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس
شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم
يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو ما تغنى
به غيرهم على أنه جميل . أما ما لم يقفوا على أن غيرهم تغنى به فلا يمكن أن
يكون جميلاً . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين
كانوا يحبون جمال بلادهم وقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له
فيها قرايبه ، وما دامت الكتب التي فيها تلك الأغاني قد أصبحت في غير

متناول الأكثرين منا وأصبحت قراءتها لا تلد ، فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذ عن جمال صحراء العرب ، وأن نثقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلابا عن جمال أوربا وروعة تاريخها . فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن فمصر لا جمال فيها ، وهى بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والآدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب عن سر بقائهم على التقليد وحبسهم نفوسهم على ما سبقتهم إليه غيرهم ، رأيهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دَوّن وحوته المكاتب ، وأنهم لهذا يكفهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى . هم فى ذلك متورطون فى أخش الخطأ . وأى خطأ أخش من إيمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ؟ ! بلى ! إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد . والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل إنسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجدداً . وإذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الإنسان بالماضى وأن يجد هذا الماضى طى الكتب ، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر فى كل مظاهر هذا الحاضر ، ليجمع بين الماضى والحاضر كاملين ، وليجد بذلك للمستقبل صوراً أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضى وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة

إذا كان هذا الماضي ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك ،
بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فإذا استطعت بعد ذلك
أن تتصل بغير بلادك لتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك ، أو
استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها
وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت
النروة من مراتب الإلهام . لكنك على كل حال لن تجد في قصرك
نفسك على الكتب إلهاما صحيحاً ولا وحيّاً صادقا . إنما الإلهام الصحيح
والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك
ما فيها من جمال هو الأساس الأول لكل إيمان صحيح .

وكيف لإنسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل إليه
عن طريق حسه هو، وإنما وصل إليه من طريق حس غيره ! كيف له أن
يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه ، وإنما هو يذكره لأن غيره ذكره ،
ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف مظاهرها ،
وإن انفتحت في النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذي تبدو فيه .
وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التي تتجلى
بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد
ومن عصر إلى عصر . ما بالك بالصور التي يقع عليها الحس ويتأثر بها
في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم؛ لأن الأشخاص يختلفون في
قوة كل حاسة من حواسهم وحس من أحاسيسهم وعاطفة من عواطفهم .
كنت أتصفح يوماً مجموعة من الشعر الفرنسي نشرت مجلّة
الحوليات Les Annaies في ملحق لها وجعلت عنوانها إلى جانب المدفأ
Av coiudu Fen وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يشير

المدفأ في نفوس أكثر الشعراء بل في نفوسهم كلهم من الخواطر وما يجيش فيها من العواطف . وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبتة في هدأة الغرفة التي يقيم فيها ، أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها ، وكيف جلسا على مقربة من النار يصطليان في حين تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض ، وكيف تبادلا حلو الغرام وتناجيا بأغاريده ، وكيف تاهت عليه صاحبتة ودلت ، ثم زادت تهاً ودلاً ، على حين زاد هو استعطافاً وضراعة . وكيف جثا عند قدميها راجياً آملاً ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشاً من الأحلام والمنى العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلها يقرآن ويتحدثان ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلوبهما حتى يمزجاها مزجاً ، وما الى ذلك من صور حلوة يزيد بها حلوة أنها تعبر عن إحساس صادق وشعور فياض ، وهى مع ذلك وفي تعبيرها القوى هذا بسيطة كل البساطة في نفسها وفي روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا إغراب .

وذكرت حين قراءتى في هذه المجموعة من الشعر الفرنسى التى ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر فى الفن وفى الأدب عند أهل أمة الشمال كافة . وليس أحد يعرف الأدب الإنجليزى شعراً وثراً إلا يذكر جوار المدفأ The fireside وما ألهم الكتاب والشعراء . بل إن لجوار المدفأ لأثراً عملياً فى حياة هذه الأمة الشمالية كلها ، وهو لا شك له مثل هذا الأثر فى الأمة الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط فى الشمال ، وحيث يضطر الناس للاحتواء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل الشمال سواء . وأنت إذ

تقرأ شيئاً عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر واضحاً ظاهراً
 في عيشهم وفي توزيع ثروتهم وفي ألوان طعامهم ولباسهم وفي صور
 سرورهم وملذاتهم . فإلى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوز تقص على
 حفيدتها قصص الماضي وخرافات وأساطيره . وإلى جوار المدفأ تجلس
 الأسرة تتناول طعامها في النهار وفي الليل . وإلى جوار المدفأ يجلس
 الرجال يقرءون والنساء يطرزن والأطفال من حول أمهاتهم وآبائهم
 في شغل بلعهم وما أعد لتسليتهم . وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده
 ويكتب الكاتب رواياته ، ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف كل
 في خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ
 في حياة تلك الأمم ، أن يكون المدفأ وما يلمع فيه من بصيص
 النيران وما يرسل من ضياء لا يضىء ، لا عجب أن يكون مصدر وحي
 وإلهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف ، وأن يكون بعيد الأثر
 في الفن والتفكير عند الذين يقضون حظاً عظيماً من وقتهم في جواره .
 وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التي تلهم الشعراء
 شعرهم في بلاد الشمال . لكن الشلوج وقر الشتاء وبداءة الربيع وتفتح
 الأزهار وكل ما في الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم أيضاً ، وهو يلهمهم بذاته
 عن طريق اتصالهم به . وليس إلهامه إياهم مقصوراً على ما يقرءون عنه
 في الكتب التي سبقهم بها غيرهم . بل هانحن أولاء تحيط بنا طبيعة
 ساحرة ، ومع ذلك لا يظهر لها في شعر شعرائنا ولا في كتابات أدبائنا
 من الأثر إلا قليل . ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ؛
 لأن الذين ألفت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها ،
 بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون ، كما قدمنا ،

بالحياة إلا عن طريق غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم في هذا ينسون أنهم القيثارة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة في مختلف مظاهر الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها وبذم فيها ، وقضى على كل أمل في أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدّون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعروثر في وصف مصر والتغنى بسحر جمالها ؛ فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً من أمرها . فإن هم ذكروا منه شيئاً لم يزد على بريق حسن بدا لهم ، فلم يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به ، واكتفوا بأن سجلوه في فراره ، كأنما ليس له في حياة مصر قرار . ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تالهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو إثبات هذا البريق الفرار ، وإنما هو الوقوف عند الجمال والإعجاب به وأخذه إلى مجامع النفس في مختلف صورته ، والعود إليه مرة ثم مرة ثم مرة ، والوصول بالنفس إلى حدود الفناء فيه حتى تمتلئ به وتجمع إليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه ، فإذا هذا الجمال يفيض عن ذى الفن . وإذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذي تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحاً إنسانية تخالط النفوس كلها ، فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن ، وتحس في الأشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولولم يخلقه في الحياة خلقاً يجعل للانسان على الأرض من المجد مثل مجد الله في العلا .

ولنعد إلى النيل ، إلى هذا « البحر الأعظم » الذي كان أنشودة العالم منذ القدم ، إلى النهر الذي تأله على الدهر وجل في كل العصور

وتقدس عند كل الأديان . ألم يكن ربا من أرباب الفراعنة يرمزون له بإبيس إله الخير والبركة ؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة ، وأنه فيها ينبع من أنهار العسل ؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد في هذا النهر إذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله وحبه ، وحياء لا ينضب وإلهاما يكفيه مدى حياته ، بل يكفي شعراء وكتابا وأرباب فن على تعاقب الأجيال جميعاً . إن في تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة ، وفي ارتفاعه بالفيضان جباراً رحماً ، يغرق ويسقي ويطغى ويغصب ، وفي خضوعه للسباحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهو حيناً ، وفي هؤلاء الذين يتغنون في سكينه مطمئنة حين هو يحملهم في أناة ومن غير عجلة إلى حيث يريدون ، وفي تعاريجه وشلالاته وسدوده ، وفي انبعائه من هناك ، هناك عند خط الاستواء ماراً بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو إلى مصبه ، وفي شواطئه الخصبية بطمية الدائمة شكر النعمة ، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعا وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذي يمد بالحياة كل ما حوله ، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمى التجدد والجمال — في هذا كله من الشعر ما تقتصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور ، وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها إلى يوم أزلهما إلا بعضه ؛ لأن مصر وتاريخها ليسا إلا بعض هدايا النيل وأعطيانه .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الإله كل ماملاً به نفسى من تقديس وإجلال في كل مرة صحبتها فيها ، ولن أنسى منظره الذى أشرت إليه حين عجب بفيضانه في صيف سنة ١٩٢٩ وحين أخذنى إليه أخذاً أثر

عودتى من أوروبا بعد مشاهدتى التيمس والسين والتبر فى مختلف عواصمها
 فى الساعات الثلاث التى قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة وبعد أن
 تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلات نفسى بروعة جلاله . يومئذ
 تحرك فى نفسى الفلاح القديم الذى ورث عن آبائه وأجداده حب هذا
 الثرى المقدس ، وإجلال هذا النهر المبارك ، والإعجاب إلى غاية حدود
 الإعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة والنضرة .
 نعم ! تحرك هذا الفلاح فى نفسى ، فصرت لا أبصر إلا بعينه ، ولا أسمع
 إلا بأذنه ، ولا أحس إلا بقلبه ، ولا أشعر إلا بشعوره ، فكنت خلال
 هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمنظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر
 أكثر مما يأخذنى أى مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسى على
 أشده لمشهد مياه النيل فى فيضانه تتقلب أمواجهما الحمراء بعضها فوق
 بعض فى الترع وفى النهر العظيم . يالها ذات جمال لا يعدله جمال ، وروعة
 تسجد أمام جلالها كل روعة ! إني لأشعر أن هذا الماء المملوء حياة
 وخصباً يجرى فى حنايا نفسى ويجرى فى عروقي مع دمي أكثر مما يجرى
 فى النهر وفى الترع المتفرعة منه . وإني ما أزال لذلك أراه أمام نظري
 وأنا أكتب فى غرفتي أمام كتي ومكتبي . نعم ! هاهو ذا ي موج حلواً
 جذاباً ساحراً بلونه الطامى وموجه المتدافع فى طمأنينة بين جروف الترع
 المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والأشجار ، وتنفسح من ورائها
 المزارع الخضراء المترامية إلى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن ، وتقوم
 فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون ، تأوى إليها اليد العاملة التى تنبت
 من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التى يجود الله بها على أهل
 مصر . وهاهو ذا ي موج فى عظمة وجلال وقوة تدافع فى مجرى النهر

الذى اتخذ منه أجدادنا الفراعنة إلهاً يعبدونه ، والذى جعل من مصر
جنة فيحاء بدل أن يذرّها تندمج فيما يحيط بها من صحراوات جرداء .
أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات
الميمون الروحات ! ومع ذلك يقدر سكان روما والتبر وسكان باريس
السين وسكان برلين الأسرى وسكان لنندرة التمس ! ما أكبر ما لأجدادنا
من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة النعيم منابعك الإلهية !
أى منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرنا
في سحره وبهره !! وأى جبال في سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه
المستويات الداهية إلى الأفق تكسوها زروع مصر وأشجارها ، وكلها
النماء والقوة والحياة المتدافعة !! أنظر إلى مزرعة الذرة ما تزال في أول
صباها زاهية خضرة أوراقها غضة سيقانها ، تلتف حولها عُقلها كأنها
قصبات الناي ، يثير منظرها في أذنك ألحانا لا تدري أى عيدان الذرة
ترتلها أم هى أصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكمل
في نفسك جمال هذا المنظر المصرى الفذ الجمال . ثم أنظر إلى أشجار
القطن مناط آمال أهلنا الذين تراه سمر الوجوه سود العيون حادى
النظرات ، تلمع عيونهن ذكاء ، وتحدث نظراتهم عما جبالوا عليه من جد
ومثابرة . وسط هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل
ما رأيت مما سواه ، ذكرت أننى أستطيع أن أجوب أقطار الأرض
ما شئت ، وأشهد من صور الجمال فى مختلف مظاهر الفن ما حلالى أن
أشهد ، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب ، وأن أقرأ
من أدب العرب وأدب الفرنج كل ما يتسع وقتى لقراءته — أستطيع أن
أصنع هذا وأكثر منه من مثله ، ثم أبقي بعد ذلك وفوق ذلك مصريا

وأبقى أكثر من مصرى أبقى فلاحاً قحّاً صمياً ، أقدس كل ما فى مصر
ومزارعها من جمال ، وأقدس النيل الذى حبا مصر الحياة وجباها
الجمال .

لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا
النيل ودونوا وحيه ، لرأيت صاحبى الذى هز كتفيه حين ذكرت
له إعجابى بالنيل وجماله ، أشد بنيل بلاده إعجاباً منه بجمال سويسرا
أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالفن يسكب الجمال حتى
فى النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع
الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال . ذلك بأنه يحب إليهم الحياة
ويدعوهم إلى زيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها
وبهجتها . وما أشك فى أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها
لعمل الإنسان بعد أن دله الفن وأربابه على مبلغ ما جملت الطبيعة به
تلك البلاد . ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا
كل ما فى وسعهم لزيادة جمالها جلالاً وروعة ، ولرأينا هؤلاء الذين
لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة فى جلال سهولته وقد رأوه
باهراً بارعا من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فأمنوا به إيمانهم
بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل لكان
تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعمق ؛ لأنه تقديس جمال متصل بنفوسهم جار
مجرى الدم فى عروقهم .

ولست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هى وحدها ذات
السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك
أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره ، كما سنبين فى الفصل التالى . وهذا

التاريخ وذاك الوادى ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحي
لأدب قومي يصور مصر فى ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع
فى نفوس أبنائها وفى نفوس الأجانب عنها ممن يقرءون هذا الأدب ،
فيعرفون مصر كما هى حقاً ، لا مصر التى شوهدت شر تشويه بالذعاية
الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية . ويومئذ تنتقل النفس المصرية
خطوة واسعة فى سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها ، وتنتقل كذلك خطوة
واسعة فى سبيل تمثيل الجمال والخير والحق ، وتسمو بذلك إلى المكان
الإنسانى الصحيح الذى ألقى على عاتق الأدب فى مختلف العصور أن يمهّد
له فيعد الإنسانية عن طريقه لبلوغ الكمال .

التاريخ والأدب القوي

بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصال نفسي وثيق ينسأه كثيرون فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم وفي العقائد الدينية وفي اللغة وفي غير ذلك من مقومات حياة الأمم ، قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلا حاسما جعلنا إلى العرب أو إلى الرومان أقرب منا إلى أولئك الذين عمروا وادى النيل في ألوف السنين التي سبقت المسيحية . وهم يعلمون ما يحسبونه من ذلك بعظم هذه التطورات . فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم ، والذين يتصورون الأشياء على ما تريدهم لغة العرب أن يتصوروها ، تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الميروغليفية بما كانت تحملها ألفاظها وعباراتها المتوارثة إلى القلوب والعقول من صور ؟ وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالإسلام وأقلهم بالمسيحية والذين تكونت عقائدهم على ما في كتب الإسلام والنصرانية المقدسة — وبين هذه الكتب المقدسة صلة متينة قوية — كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقد عباد آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعديدين ؟ ! بل كيف تراهم ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أى ارتباط ؟ ثم كيف ترى المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان ، ثم لنظم المسلمين ، ثم للنظم الديمقراطية الحاضرة في صور الحكم ، يفهمون من الحكم ما كان

يفهمه أولئك الذين خضعوا في سكينه واستسلام لبناء الأهرام والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ مجدها ، والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد التي فرضت عليه ؟! أو ليس القول ، وهذه هي الحال ، بوجود الصلة النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة ، أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة التاريخية ؟ .. ولئن أَرْضَى هذا الخيال فكرة قومية تريد أن تصل مجد مصر الحاضر بمجدها القديم إنه لن يَرْضَى الواقع الذي يجب الاعتراف به ، والذي يفصل بين المصريين القديمة والحديثة فصلاً حاسماً .

كذلك يقول الكثيرون . ولقولهم ظاهر من الحقيقة . لكنهم لا يعدون ظاهر الحقيقة في قولهم بانهطاع الاتصال النفسى بينك وبين أجدادك ؛ لأنك تعلمت غير تعلمهم ، وفهمت الحياة غير فهمهم إياها ، وخضعت لنظام من الحكم غير الذي خضعوا له ، وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التي كانوا يتكلمون ، وتنظر إلى العقيدة بغير العين التي كانوا بها ينظرون . أنت في الظاهر تختلف عن هؤلاء الأجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رأيهم ويراك أنك لست منهم وأنهم ليسوا منك . لكن ذلك لا يزيد على أنه الظاهر . أما الحقيقة العميقة التي تشعر بها أنت ويشبها العلم فهي أن بينك وبين أجدادك اتصالاً وثيقاً لاسبيل إلى إنكاره وإن جهله الناس ، وإن جهلته أنت . فهذا الدم الذي كان يجري في عروقهم يجري في عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التي كانت تدفعهم في حياتهم هي التي تدفعك في حياتك . وأنت محكوم عليك طائعاً أو كارهاً أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك إياه .

فإذا أنت دخلت يوماً إلى نفسك تحاسبها على أعمالها ، وإذا أنت امتحنت يوماً خلقتك ، وحللت فطرتك ، وتعرفت سجيتك ، إذن لرأيت جوهر أجدادك قد انتفل إليك . فإذا خضعت بحجم الحياة المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فسك الذهب عملة مختلفة الأشكال لا يغير من أنه ذهب ، وأن المعدن الأصيل باق فيه بقاء معدن أجدادك فيك .

وبعد، فهل تحسب هذه المظاهر التي يظنونها كافية لقطع الاتصال النفساني بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفي لقطع هذه الصلة بل لإضعافها ؟ أليست هذه الأديان التي تتابعت على مصر ، وهذه النظم التي خضعت لها ، وهذه اللغات التي تعاورتها ، هي الأديان والنظم واللغات التي تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة لها ؟! أليس الإسلام والنصرانية واليهودية هي الأديان التي يعرف كل واحد منها الدين الذي سبقه ويعترف به ؟ أليست جميعاً قد نزل الوحي بها في مصر وفلسطين وبلاد العرب وكلها متجاورة أقرب التجاور ؟ أليست اليهودية ، وهي أقدمها جميعاً ، تتصل بالفراعنة وبمصر القديمة اتصالاً متيناً، والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها، والإسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما ؟ ... ثم أليست لغات الفراعنة والعرب والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة ، وهي حياة متشابهة في التاريخ القديم قريبة التشابه في التاريخ الحديث ؟ وأما نظم الحكم فلا تغير من الحقائق التاريخية شيئاً ؛ لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذي تكون فيه في مختلف أنحاء العالم ؛ فهي أضعف من أن تترك في نفسية الأمم أثراً عميقاً .

فإذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل

منذ آلاف السنين ، وأن هذا الوسط الطبيعي هو الذى يصقل اللغات والعقائد والنفوس ، وأن الذين أغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالا فقدوا كل صفات أجناسهم القديمة وخضعوا لحكم الوسط الطبيعي ، وأصبحوا كأنما آباؤهم وأجدادهم فى مصر منذ عهد الفراعنة — إذا ذكرت هذا أيقنت إذن أن بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالا نفسياً وثيقاً ، وأنه من الواجب على المصريين أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال ، وأن خير ميادين البحث العلمى هى الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة .

ولقد يدعشك أن تعلم أن كثيراً من طقوس العبادة فى مصر هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير بتعاقب الأديان المختلفة على مصر . وأنت ترى أن كثيراً من الحفلات التى تعتبر دينية عند الأقباط وعند المسلمين كحفلات الزواج وحفلات الجنازة تتشابه أشد التشابه ، وبخاصة فى بلاد الأرياف حيث الوراثة سليمة لم تعصف بمظاهرها أعاصير الحضارة ، هذا مع أن هذه الحفلات تختلف عند مسلمى الدول الأخرى كالمغرب وتركيا ، وتختلف عند أقباط مصر عنها عند نصارى الدول الأخرى . فهل تستطيع أن تجد لذلك تفسيراً إلا أن هذه الحفلات سابقة فى مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الإسلام وعلى المسيحية ، وأنها ترجع إلى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ .

أشار بعضهم إلى أن تلقين الميت عند مسلمى مصر عادة ليست شائعة عند أكثر المسلمين . وأشار إلى أن عبارة هذا التلقين وما جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالهما وتحديد الأسئلة والتحدث إلى الروح

والنصح لها بالجواب على صورة معينة ، كل ذلك يعيد إلى النفس صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين وما كانوا يتحدثون به إلى الروح لتنجو . ولست واقفاً على تفاصيل هذه الطقوس القديمة لأؤكد ما يؤكدون من مشابهة بينها وبين التلقين . لكن هذه المسألة تدل على كل حال على أننا ورثنا حتى في العبادة طقوساً تسالت إلينا من الأزمان القديمة ، وأنا اقتبسنا من الدين الإسلامى ما أسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به . ومن يدري ! لعل عند إخواننا الأقباط مثل ما عندنا من ذلك أو أكثر منه .

ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافاً عظيماً عنها عند أهل الأمم الأخرى ، ولكنها تتفق والمظاهر التى عند سائر المصريين ، كما تتفق وما كان عليه الحال عند قدماء المصريين . فكما ترى النسوة من أهل الميت وخدمه وتابعاته قد انتقلن مع جنازته فى الأزمان القديمة نادبات مولولات لاطمات خدودهن مجللات بالسواد وجوههن وأيديهن ، إذا بك ترى مثل هذا تماماً عند المسلمين من المصريين ، وبخاصة فى الأرياف التى ما تزال خاضعة لأحكام العادات القديمة . ولعلك إن بحثت عن سبب الإفراط فى الحزن وعدم النظر إلى انتهاء الحياة بشئ من السلى وجدته فيما كان يعتقد الأقدمون من بقاء الروح أو بعبارة أدق الشخص الباقي (السكا) يرقب ماسيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب . وكأنما تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء ، فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الذاهب خاضعاً لآلهة الحساب وقسوتهم ، فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت لعل فى ذلك ما يلين قلوب الآلهة ، كما يلين ألم النظارة والحاضرين قلب الحاكم الذى يحاسب

رجلاً أمامه على سيئة اجترحها . ومع تداول الأديان بعد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة في النفس المصرية ، فكانت لذلك أشد فزعا مما بعد الموت من سائر الأمم الإسلامية . ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذائذها على نحو ما تعشقها عمر الحيام وغيره من المسلمين في الفرس وفي بلاد إسلامية أخرى .

بل لقد ترى من مظاهر وراثـة المصريين اليـوم لثـراث أجدادهم الأقدمين ما هو أبلغ في الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما . ذكر غير واحد من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة أن ما يخلعه المسلمون المصريون اليوم على بعض أوليائهم المحليين من مقدرة وسلطان وما يقومون به لهذا الولي أو ذاك من طقوس وفرائض في « مولده » هو بعينه ما كان يقوم به المصريون الأقدمون في هذه المنطقة لإله محلي من آلهتهم من طقوس وفرائض ، وما كانوا يخلعونـه عليه من مقدرة وسلطان .

ولا أريد أن أقرن إلى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة موسى عليه السلام من حيث وضعه في التابوت وإلقاء أمه به في اليم والتقاط فرعون له ، وقصة أوزوريس وخيانة سخت له بوضعه في تابوت وإلقائه في اليم وعثور إيزيس عليه عند جيبيل من أعمال الفينيقيين ؛ فقد لا يكون الشبه هنا دليلاً على أن القصة واحدة اختلفت عليها أيدي الرواة ، وقد تكون عادة الإلقاء في اليم بعض عادات ذلك العصر ، فأصاب أوزوريس إله المصريين القدماء الأعظم ، كما أصابت موسى عليه السلام . بعد ذلك على النحو المبين في الكتب المقدسة .

لا سبيل إذن إلى إنكار ذلك الاتصال النفسى الوثيق الذى يربط تاريخ مصر منذ بداءته إلى عصرنا الحاضر ، وإلى آخر العصور المستقبلية التى يمكن أن يعرف التاريخ . ولئن تبدلت أسباب العيش ما تبدلت ، ولئن قربت السكك الحديدية والبواخر والطائرات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين أجزاء العالم ما قربت ، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية ، فسبقى أبداً هذا الاتصال النفسى الوثيق الذى يجعل من مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة ، فيما يصل إليه عقلنا من تصور الأزل والخلد ، بما أورث أجداد هذا الوادى الحفدة ما سكبته طبيعة الوادى فى وجودهم من حياة نفسية ، إن تأثرت بمظاهر العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبداً طبيعتهم التى لم تتغير منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا ، ولا شىء يدل على أنها ستتغير ما دام الإنسان إنساناً .

وإذ كان الإنسان أقوى سلطاناً على الحياة وحكماً لها كما تمثل ماضيه فى شخصه وكما ، تمثلت الأمة تراث آبائها وأجدادها جميعاً بالغاً ما بعدوا فى غيب الماضى ما بلغ ، فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن أجدادهم جميعاً ، وأن يربطوا بين حاضرهم وماضيهم ربطاً ظاهراً لكل عين . وإنهم إذن ليضيفون إلى قوتهم قوة ، وليضاعفون مجدهم أضعافاً ، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعاً ولها ذوقاً . ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك ما لا يدع مجالاً للشك فيه . فكلنا صفق طرباً لاستكشاف آثار توت عنخ آمون . وكلنا ملائ ماضيه خفراً بمدينة هذه الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية على ما بيننا وبينها من آلاف السنين . وكلنا حدثه نفسه : إذا كان أجدادنا قد

تسنعوها هذه الذروة السامية من ذرا المدينة فلم لا نتسنعها نحن كما تسنعوها ؟ ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والأمل ما لهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى ، بل كان منشؤها في غور النفس وأبعد أعماقها : كان منشؤها اعتزاز النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك الحياة بعد يأس من هذه القدرة . أرأيت إلى الفقير البائس الذى لا يعتر من آباءه بجاه ولا بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له إلا فى الحظ الحسن وهو من غدر القدر دائماً على حذر . ثم أرأيت إلى المعتز بجاه بيته وماله كيف ينظر إلى غدر القدر باسماء وهو دائماً يؤمن بأن له آخر الأمر الغلب . هذه العواطف هى التى تحرك الأمم بقوة مضاعفة ملايين المرات أكثر مما تحرك الأفراد . ولذلك يعتمد المستعمرون الذين يريدون أن تذلل لهم أمة إلى أن يلقوا فى روعها أنها كانت على التاريخ عبدة ذليلة ، فخم عليها أن تظل عبدة ذليلة . فإذا جاز لنا أن نأمل ما يأمل المعتز بجاه بيته وماله ، وكان لنا من آثار الأقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة ما يطوع لنا أن نجد مصر القديمة ، كما جدد الغربيون اليونان والرومان ، وكان لنا من وراء ذلك مطمع فى أن نقر فى مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التى أقرها الغربيون فى أوروبا ، فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن ننى فى ذلك أو نقصر فيه أى تقصير .

والسبيل إلى ذلك كله هو البحث عن موضع الانصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة فى ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة . ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعاً فى هذا المضمار . فمنذ كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز

حجر رشيد لم تن البعثات الغربية من أوروبا وأمريكا في البحث والتنقيب عن الآثار المصرية وبعث ما تنطق به أحجارها الصامتة وما تنطوى عليه أوراق البردى القديمة . وهذا فضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه ، لكنه يحملنا نحن وزراً كبيراً ، وزر الإهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذي يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراساً لإقامة حضارة لا تقل عن تلك بهراً ولا تقل عنها ازدهاراً .

وإنى ليخيل إلى أن المصريين الذين يتقدمون إلى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة أدنى إلى التوفيق فيه من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون إليه . ذلك بأن غير المصريين إنما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم وما لا تسرى روحه في قلوبهم وأفئدتهم ، فلهم إن أخطئوا عذر المترجم الذي ينقل من لغة إلى لغة . أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق له أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين القدماء ، فإنهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الأداء الأوفى .

ولقد وقفت في مطالعاتي لمراجعة بعض كتب مما خطه بعض الأقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم ، فألفت فيها روحاً وحياة أكثر مما ألفت فيه في كتب أخرى وضعت حديثاً . ولا عجب فاليونان ومصر متجاورتان ، وروح العصر كانت تربط الفريقين جميعاً بأوثق رباط .

ولست أقصد من ذلك إلى قصر التجديد في قوميتنا الأدبية على آثار

الحضارة الفرعونية ، فذلك محال لأنه مخالف لحلد حياة الأمم . وإنك لترى هذه العصور الوسطى في أوربا ، والتي يسمونها العصور المظلمة ، ذات أثر في تاريخ الأدب الغربي غير منكر . والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراعنة لحكم الأجانب فتاريخها لذلك ليس تاريخها ، زيفون التاريخ . إنما خضعت مصر لناموس ما تزال أكثر الأمم الملكية خاضعة له بجلوس أسرة أجنبية عنها على العرش الذي يعتبر تاجها وعنوان مجدها . ثم إن مصر أيام اليونان والرومان والعرب وإلى عصر قريب جدا كانت ذات أثر كبير في سياسة العالم وفي توجيه دفة حضارته . وكل هذا الماضي المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به وأن نعيد إلى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره ، لنزداد به على الحياة قوة وعزة ، وليزيدنا بالحياة متاعا وفيها سعادة . وإنما أريد ألا يقل النشاط في الكشف عن حضارة الفراعنة وتمثلها وإحيائها عن نشاطنا في الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر ، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد ، فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون من الفراعنة إلى البطالسة ، إلى مقاومة مصر استعمار روما ، إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت على شاطئ النيل وأضاءت العالم بنورها قروناً متوالية ، إلى عصور التدهور أيام الحكم العثماني ومقاومة ما كان من ظلم تلك العصور ، إلى هذه النهضة الحديثة التي تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعاً . ولا ريب في جلال هذا التاريخ كله جلالاته يوحى للطلاب ويلهمه أقوى إلهام في ميادين الأدب القومي بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثاراً

شاحنة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراعنة إلى عهدنا الحاضر .
ولست أغلو في تقدير قوة هذا الإلهام القومى الذى ينبعث من
تاريخ مصر لكل من عنى بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع
الاتصال بين مختلف عصوره . ولقد أشرنا فى الفصل السابق إلى قوة
إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحى النهر الإله . وأحسب ما تقدم فى هذا
الفصل يزيد فى قوة هذا الإلهام بما يصور من تاريخ من أقاموا إلى
جانبى النهر يتعاقبون على ألوف السنين . ويضعف فى قوة هذا الإلهام
كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ الفراعنة إلى عهدنا وإلى من
بعدها ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . هذه الآثار التى ترك الأقدمون
منذ بناء الأهرام الأولى إلى أن أقام الرومان مقابرهم بعد أن مهد لهم
الفن اليونانى حين دخل إلى مصر مع البطالسة ، وما أقامت المسيحية
بعد ذلك من كنائس وبيع ، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن
الإسلامى الدقيقة البديعة التى ما تزال تشهد بها المساجد والتكايا وسبل
الماء وما إليها . هذه الآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من الأجانب عن
مصر ممن زاروها ، فعى جديرة أن تلهمنا أبناء مصر أضعاف ما ألهمت
أولئك . وهى ليست إلا مظهراً لحياة آبائنا وأجدادنا من فجر التاريخ .
فنحن وحدنا الذين نستطيعون أن يكشفوا عن صلتها بهذه الحياة ، وأن
يجتولوا من خلال هذا الكشف حياة الروح المصرى الذى بعث إلى
نواحي العالم فى غير فترة من حياته حضارات ساعد بها العالم قروناً
وقروناً . وأينا لا يتف بوصفه مصرى صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه
أمام أى من الأهرامات أو من آثار طيبة أو من الآثار الأخرى
الكثيرة التى تعمر الشاطئين ، أو أمام أثر من الآثار الرومانية

أو المسيحية ، أو في مسجد من المساجد الإسلامية المملوءة هبة وقداصة ورهبة — أينما لا يقف بوصفه مصرياً صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه عند أى من هذه الآثار أو عند أكثر من واحد منها يستلهمه صورة أهلنا الذى شادوه وصور عباداتهم وعاداتهم ومعيشتهم ، ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وقد تجسد الوطن بمعناه الكامل فى نفسه ، فدفع إلى فؤاده وروحه من صور الإلهام أرقاها وأسمائها ! وأينما يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزءاً من هذا الوطن باقياً بقاءه خالداً خلده ، ولا يدفعه ذلك إلى أن يتغنى بأناشيد بقاء الوطن وخلده فى رعاية الله وعنايته ! وهل أدب قومى يصدر عن هذا الإلهام كله يمكن أن يعدله أدب قومى لأمة من الأمم مما عرف العالم أو عرف التاريخ ! وقصص هذه الآثار وقصص آبائنا الذين شادوها وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية ، كل ذلك حاضر تحت أيدينا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه . فإذا تمثلنا هذا التاريخ واستنطقنا هذه الآثار وقدمنا كما يجب أن تقدس هذه الطبيعة المصرية الخصبة المحسنة ، وهذا النهر الذى أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضلها عليها فألهمنا ذلك الأدب الذى نرجو ، فلن يقف هذا الأدب عند تحقيق رسالة الأدب من تجلية الخير والحق والجمال . بل إنى لأعتقد أنه يصل إلى أكثر من هذا ، وأن قبساً من نور هذه الأديان التى شهدت مصر وتوجت بالإسلام ، سيضئ ظلمات هذا العصر المادى التى غمرتنا حضارة الغرب بآثاره ، وسيقدم للعالم بذلك غذاء روحياً يلتهمه العالم اليوم فى مختلف أنحائه فى الشرق والغرب فيفضل سعيه ولا يجد إليه سبيلاً .

ولا يحسن أحد أن هذا النشاط المادى العظيم فى الاختراع مما هو

باد اليوم في كل أنحاء العالم يحثي على فكرتنا هذه شيئاً ؛ فإن هذا
النشاط سيصل يوماً إلى فترة يستقر فيها . ويومئذ يشعر العالم بظماً
أى ظمأ إلى الحياة النفسية الفتية الممتعة . ولعله واجدها في هذا البعث
الذي نطلب إلى مصر أن تقوم اليوم به .

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا ، وفي مقدمتهم كبارهم ، عن هذا العصر الذي نتخطاه منذ الثورة العراقية إلى وقتنا الحاضر: أهو عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب ، يرجع إلى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه في الحالين نضال ما بين الحضارتين : حضارة الغرب الحاكمة اليوم ، والحضارة الإسلامية التي حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها في الاستجرام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد لا يرون مفراً من أن تغزو حضارة الغرب أم الشرق ، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثارة متهيئة للوقوف أمامه في شيء من الكرامة والعزة . وأنصار القديم يقدرّون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية ، وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضي عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً في العصور الماضية . وهم يريدون ليكفلوا هذه الغاية أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم ، يقولون فيما شاءوا منها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالقتل أو بالموت الأدبي . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على

أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من سواهم أن يتبعهم . وهم ليسوا غوا موقفهم هذا يدّعون بالسلف الصالح ، ويدعون أنهم وارثو تراثه ، وأنهم باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حرباً خارج عليه وعلى تعاليمه . ولا ريب أن في تعاليم السلف الصالح كثيراً من الحق . ولو أن خلفاء هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالاً . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شيء كثير ، وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاما ، وأن يفرغوها مع ذلك في قالب رسمي لتصبح في حماية الدولة وليسبغ عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حراً والعلم حراً والرأي حراً والتعبير عنه حراً ، وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم لتثبيت هذه الحرية ، أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدباؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها ، فيجب أن ينشر هذا اللواء في الشرق كما هو منشور في الغرب ، ويجب أن نستعير من أساليب الغرب في الكتابة وفي التفكير ، ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي يذيع كتاب الغرب وفلاسفته ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه ، فنكون من بعد ذلك أحراراً ننعم من حريتنا في بحبوحة السعادة العقلية والفنية ، ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة يفسدون علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله ، وأن نقيم

مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديداً .
 شيء من التمهيد يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود
 وثورة الحديث كل هذه الثورة ، إنما دفعت إليهما حرارة النضال ،
 وأنهما ما كانا يندفعان إلى الحدود التي اندفعا إليها لولا هذا النضال .
 وقد بينا في الفصل السابق أن الخصومة بين القديم والحديث كالحصومة
 بين الوارث والمورث غير ممكنة ؛ لأن الحديث ينطوى على شيء من
 القديم بل على أكثره ، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه إذا هو لم
 يتصل بالحديث ولم ينتشر في أرجائه . أليس نغار الأمم بماضيها لا يقل
 عن نغارها بحاضرها ؟ ألسنا في مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامي
 أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث ؟ فمحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل
 بالقديم الذي أثمره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم
 إليه . فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية
 وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ،
 وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة
 غيرهم والعيش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب
 مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومي ، وأن أحقق بذلك
 بعض ما اقترحت على مس شانك كاسانز مما أشرت إليه في فصل الأدب
 القومي . وقد بدا لي في وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر
 الإسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد
 ما استهواني من هذه العصور . لكنني وقفت يومئذ متردداً : أفأقدم
 فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثي في صورة من صور

الأدب القومى ، فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزف بالقسط ما إليه قصدت ، متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص ! من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد . وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصوبة . وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم . ولنطلق حرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة ، مستعدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولب حضارة أوربا الحاضرة .

وقد بدأت مباحثى عن أبيس العجل الإله ونشرتها ، فلم أجد من أحد نفوراً منها أو ازوراراً عنها ، مما أثبت لى أن فى النفوس إلى هذا الأدب القومى ظمأ ، وأنها صادية لورده إذا هى وجدت من يقدمه إليها . وكنت قد جعلت بحثى عن أبيس فى صورة قصة لإخوان ذهبوا إلى المتحف المصرى فوقفوا أمام تمثال أبيس ، وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الأساطير الميثولوجية التى أحاطت به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا الحدث عن بقية أصحابه دعوته نجى أبيس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض فى الشعر ، فدعوته الشيب جعلت منه رجل صلاح وتقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بآدى رأى بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة ؛ فاكتمت تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الاخوان فى مناجاتهم لأبيس وفى مناقشة النجى أقواله زمناً ، ثم خرجوا فانطلقوا مارين بشكنات

قصر النيل إلى فندق سميراميس ليتناولوا الشاي فيه إجابة لدعوة أحدهم الذى تسمى من بعد باسم الذى دعانا إلى الشاي . فلما آنست ظمأ النفوس إلى هذا الأدب القومى فكرت فى متابعة بحثى . وما دام القوم قد دعوا إلى الشاي فى سميراميس فليكن حديثنا بعد أيبس عن هذه الملكة الإلهة التى جلست على عرش بابل والتى غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم فى بهو الفندق وقد جلس إلى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين ، من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالأشيب أشد العبث وبدله من ورعه وتقواه جنون الهوى وفكك اللوعة ، وجعله يسائل فى حديث القوم عن سميراميس مقدساً للجمال فى حيث يكون ، سعيداً بحكم النساء الرجال ، سامياً بشأنهن إلى ما استهوى إليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنو إليه بنظرات معسولة زادته هوى ووجداً . وفى خلال ذلك كانت قصة سميراميس تقص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلاً . ونشرت هذه القصة أيضاً وكنت لما أطبع كتابى « فى أوقات الفراغ » . وقد وجدت من الجهد فى كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق فى بحثهما ما جعلنى أشك كل الشك فى وقتى أهوى يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين « حديث الآلهة » على ما كنت قد اعترمت أن أسمى الكتاب الذى يجمع بين دفتيه هذه الأساطير . لذلك نشرت حديث أيبس وحديث سميراميس فى كتابى « فى أوقات الفراغ » . لكن هذا البحث استهوانى من بعد ، وعاد يجذبنى إليه بقوة زادها إمعاناً تكرار زيارتى للأقصر وأسوان ومشاهدتى مختلف آثار الفراعنة فى وادى الملوك وفى صحارى مركز الدر وجباله الممتدة ما بين أسوان وحلفا . وإجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث إيزيس وهاتور

وأفروديت . وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس ، والشاب ، والذي دعانا إلى الشاى ، والأشيب ، وفاتنة سميراميس ، ويتصل به حديث هوى وصباة كنت أرجو أن يظل متصلا حتى تباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنى عدت فوقفت من بحثى عند هذه الفصول الثلاثة التى تتصل أوثق اتصال بفصلى أبيس وسميراميس وتتابع حوادثهما . ولولا ماسبق لى من نشرهذين الفصلين لكان موضعهما ولا ريب هنا فى هذه المحاولة التى قمت بها فى سبيل الأدب القومى . أما وقد سبق نشرها فإننى أكتفى بنشر فصول إيزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا ، راجياً أن تعود إلى الآلهة الأقدمون تحدثنى وأحدثها وتوحى إلى مابقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس . ولست كفيلا بأن تستجيب الآلهة إلى دعائى وقد اتجه ذهنى واتجه روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ، ولكنه أجل منها مقاما وأروع فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الفصول الثلاثة التى تلى هذا الفصل سيقدررون ماكان للفراعنة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه . ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تلذه من صور الأدب القومى . ولعله يشعر حين يبحث وحين يدون آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعاً لما حدث فى أوربا واتباعا لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ، ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين والانتقال إلى تقليد الغرب

في أدبه القومي كتقليدنا إياه في لباسه وفي طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة في الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لي لأذهب أجيراً عند الذي ابتكر هذه الطرق الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها في الأرض المملوكة لي . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب في بحث تاريخنا وإقامة أدبنا ، وفي ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ، ولا نصبح عيالاً على غيرنا ننال من فتاته وننال أضعاف ذلك من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبت بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة ، نقلت حوادثهما مما شهدت دور القضاء وما قصه على بعض زملائي المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدبنا القومي عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التي ازدهرت في هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا في مجلة الهلال في سنة ١٩٢٦ وإنما أذكر أن وقائعهما نقلت إلى مما شهدت دور القضاء لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشيء الكثير الذي يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ، ويجعل الأدب الذي يستلهم مادته أدباً قومياً بكل معنى القومى . وليست دور القضاء هي وحدها مسارج الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى ويلهم الأديب أيا كان نوع الأدب الذي يريد أن يضع ، بل إن في الحياة المصرية فضلاً من مصادر إلهام الأدب في مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما في غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك على ما لا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من

غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومي في الحياة الحديثة .

وهانحن أولاء الآن نعرض على القارئ محاولتنا في خمسة الفصول التالية ، راجين أن يجد شبابنا فيها مثلاً لطليعة من طلائع الأدب القومي المصري .

إيزيس

« ولد أوزوريس من الإله جب (الأرض) ومن الإلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الإلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أخته إيزيس ، وجلس على عرش المصريين وصار ملكا على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم إلى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

« وكان » ست « إله الشر أخا لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة ، فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقا فاخر الصنع ، ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه . فدخل إليه الضيوف واحداً بعد الآخر ، حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار إلى البحر ، وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام ، وبقي عنده تحوطه شجرة أتماها القدر لتحميه من الأعين ، إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث . لكن « ست » عثر بأخيه ثانية فى إحدى جولاته جوف الليل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها فى مكان . فعادت إيزيس إلى بحثها واستعادت أجزاء الجسم ، واستعانت بأختها وبابنها الإله هورس وبطقوس الدين ؛ فردوا إليه حياة شابة خالدة لايحياها على الأرض بل

في السماء . وكذلك بعث « الإله الملك » ووعد بالبعث كل من يفعل الخير في حياته .

(أبيس — ص ٢٨٣ و ٢٨٤ من كتاب في أوقات الفراغ)
 « لقد حدثكم بمحدث إيزيس فرأيت مبلغ وفأتمها لأخيها وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون ، فاستقلت البحر باحثة عن جثته . فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تفريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد إلى إله الخير حياة الخلد . وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة ، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

... . وقتنا إلى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميعاً . ودار حديثنا حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان . »

(سميراميس — ص ٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)
 تخطينا أبواب سميراميس فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهما اختلط بضوء القمر السابح في السماء ولما تكتمل دارته ، فهو ثلاثة أرباع ، وتعرّج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناً وضاء . وكست الأشجار الرصيف المقابل للفندق ظلاماً . فلما بلغنا الشاطئ ألقينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندي فجعل منها مرآة له وحده ، وزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق وقد اصطفت بعضها إلى جانب بعض ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ماطويت قلوعه في انتظار من يستقله ، ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيأت منه معبداً للزهرة وآلهة الهوى جميعاً . ووقفنا وتقدم الندي دعانا إلى الشاي يتخير لنا زورقاً لاستور على جوانبه ؛ فليس حديث

الرجال في حاجة إلى ستر وإن تناول الجمال وآلته والهوى ورباته .
وتنادى أصحاب الزوارق كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه
مرغباً بإياديه ، وجعل كل منا يدير نظره في هذه السوانح ليتخير
الطفها وأظرفها . فأما الأشيب فوقف في شبه ذهول برهة لا ينظر إلى
الزوارق ولا إلينا . وتخبرنا زورقنا وجاء صاحبه يعاوننا على التخطي
إليه . فلما كان دور الأشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الأشيب
يهمس في أذنه :

— إلى أين ذهبت السيدات الإفرنج والسادة الذين سبقونا إلى
هنا منذ هنية ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالأشيب ، ونظرت إلى
« الرئيس » فإذا به يجيب في جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً إلى
ناحية جسر عباس :

— هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك ، وأحسبهم يقصدونها .
أخذنا أما كنتنا ، ونشر الرئيس قلع زورقه بعد مادفعه فوق لجة
الماء والنور بمجدافه . وسرى إلى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده القمر
رقة وعذوبة . وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم في قلعه وقد وجهه
الرئيس إلى ناحية جسر عباس ، كأنما هداه سؤال الأشيب طريقه .
وسرحت بصرى نحو الجزيرة ، فاستوقفته إحدى الذهبيات وكأنها
يجالها قدس هوى أنبته الماء وانبتت فيه أنوار الكهرباء المظلة من
نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدرت نظري إلى سميراميس ، فإذا هي
بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر جميعاً . وأشركت أصحابي
فيما جال بخاطري ، فكان الأشيب أسرعهم إلى إجابتي :

— هي منارة هدى للقلوب والأبصار .

وابتسمنا . . أما هو فلم يبتسم ؛ لأنه كان في شغل بالذهبية التي ذهبت إليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذي دعانا إلى الشاى يداعبه :

— لعلك لا تشير إلى فندق سميراميس بل إلى سميراميس الإلهة التي جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى . ولعل الحظ الذي هدانا إلى الفندق والإلهة فيه . يهدينا إلى الإلهة حيث تكون .

وابتسم الأشيب لهذه الدعابة ، وابتهل إلى الله أن يجيب الدعاء . ثم توجه إلى نجى أبيس بقوله :

— وأنت يا صاح خذ بنا في حديث إيزيس . فلعل الإلهة التي عثرت على أخيها وزوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على صاحبها الإلهة السيدة سميراميس .

قال نجى أبيس :

— لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان ربوبيتها من مصر إلى أثينا وروما ، ولتؤمن بأن لاسمها سرا تعنوله القوى حتى اليوم . وإذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة ، فإنها ظلت بعد ما ارتفعت إلى أثر الخلد تؤتى عبادها المخلصين من روح قوتها ما يتغلبون به على كل عقبة ، لكنها تطلب إليهم أن يكونوا مثلها ذوى صبر وإيمان . فلا تحسب يا صديق أنها عادت بأوزوريس في صندوق الخيانة الذي حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء . بل لقد ركبت في سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه همم الرجال . ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير

الشر ويغلب الرجاء اليأس، لأسامت للقدر وعنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف أول ما عرفت الخبر ، وكاد الهم والحزن يقعدان بها دون النضال . وكفاها يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن تستسلم لتيفون ، وأن تدع الخير دفيناً في محبسه غير مخلد في السماوات . وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة فقط أطفالاً سألهم عن الصندوق وهل رأوه ؟ والأطفال كما تعلمون ، أحباب الله . وهم لذلك ملهمون من أمر الغيب مالا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جيل في الشام . وكان أهل جيل قد بهروا بنمو الشجرة التي أحاطت به وحفظته في جذعها . فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عماداً لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة إيزيس بذلك كله خبراً ، فجلست عند مورد ماء مكتئبة لاتكلم إنسيا . فلما مر بها خادمت الملكة عشتروت حيثهن وتحدثت إليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذي يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن إلى سيدتهن ، فتاقت إلى معرفة الغريبة التي ضوَّعتهن بالشذا العذب ، وبعثت في طلبها ، فبهرها جمالها وحكمتها ، واتخذت منها صديقة لها ، وعهدت إليها في تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيح للإلهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين في عماد البهو تشدو حوله كلما سجا الليل بأغنيات الموت والأسى . فإذا فرغت من شدوها عادت إلى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء... وفطن بعض من في القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها . فراقبتها ليلة ، حتى إذا رأت النيران تخرج من فمها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلبت

الإلهة من الطفل ما كان قد أصاب من أسباب الخلد وإن أبقت له صحته . وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة ، فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد ، وشقته وأخرجت منه الصندوق وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته في قارب وبعدت عن جليل وفتحته وبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمر بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق في مكان وذهبت تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفثيس ليعيدا للملك الإله حياته .

« فلعلك ترى يا صديقي أن إيزيس تجشمت في سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة مالا تتجشم النسوة في سبيل البحث عن أشلاء أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وإنما هو الوفاء الذي جعلها تستمرى المشقة ، وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذي هون على ربوبيتها أن تخضع « لملا كندر » وامراته .

ولما عثر « ست تيفون » أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلواً وألقى كلا منها في مكان . وليس من اليسير تصور ما تجشمته إيزيس في سبيل العثور من جديد بالأشلاء جميعاً . واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشر قد ألقى به في النهر طعاماً للأسماك مما اضطر إيزيس إلى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع ليطم لها الرجاء في إعادة الحياة الكاملة لإله الخير الذي عبث به الشر وأعوانه شر عبث . وكأما كان الخير في عصور الآلهة مثله في عصور الناس هيباً للشر متحاشياً إياه قاصراً عن دفع هجماته عاجزاً عن مهاجمته . فإن إيزيس خشيت بعد الذي لاقت من نصب في بحرها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به ، فأقامت

أربعة عشر قبراً في أربع عشرة قرية من القرى التي عثرت بالأشلاء فيها، وزعمت أن كل واحد منها قبر أوزوريس، لتضل بذلك أخاه في مطاردته إياه. وما تزال هذه القرى تدعى إلى يومنا بهذا الاسم. فأبو صير ليست إلا « بوزيرى » أو قبر أوزوريس. وإقامة هذه القبور جهد مضمّن أشدّ إضناء، وهو بعض الوفاء الذي تميزت إلهة مصر القديمة على غيرها من إلهات الجبال اللأني ازدرين الوقار وسخرن من العفة.

قال صديقنا الشاب :

— ظريفة أساطير القدماء ! وأقر لكم الآن بخطئى حين سخرت من عبادة أبيس. فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة، فمن حق ثمرات الأرض أن تكون لها آلهة. وللثور كما للنيل وللشمس حظ في إنبات هذه الثمرات. فمن حق الثور أن يكون إلهاً كالشمس والنيل، ومن حقه أن يكون أوزوريس أو غير أوزوريس من أكبر الآلهة رمزاً له.

وقال الذى دعانا إلى الشاى باسماء :

— ما أسعد جماعتنا بعودك إلى ذوق أساطير أسلافنا ! وما أشدنا سعادة بإجلالك عبادة أبيس ! فهو وحده الذى اختص مع النيل والشمس بعبادة مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها. أما سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه. كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه. وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما ونسبة الخير إلى أحدهم والعلم إلى غيره والشر إلى ثالث وهلم جرا، لم يكن إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية

مر بها عباد هذه الآلهة . وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلهاً طائفاً له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته ، كما كانت أوثان الرب قبل الإسلام آلهة كل منها لقبيلة ، ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى ، فكانت إله الطائفة المغلوبة على أمرها شقياً مثال النقص والفساد ، وكان إله الطائفتين الممتزجتين صنوين في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . وأذكر على سبيل المثال أن آمون إله طيبة لم يكن أول أمره ذا مكانة عند غير عباده ، وكان رع هو الإله المقدم في أنحاء مصر الأخرى . فلما آل إلى طيبة عرش مصر وكان لازماً أن يصير لآمون مجد طيبة ، لم يكن إلا أن امتزج برع فصار الإله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الألوهية بين آلهة عشائرها المختلفة ، وخص كل منهم بعمل من الأعمال ووصف به . وأعمال هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية أن تكون ، وهي لذلك مظهر من مظاهر شهوات الإنسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير ، وأن هورس كان إله الشمس في هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتح إله منفيس أكبر السلطان ، حتى جعلت طيبة إلهها آمون قريناً لرع وإلهاً للشمس كهورس وفتح . وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ أو لم يكن خير

أن يرسل كل إله للناس رسولا منهم من أن يرسل حيواناً أعجم ؟
وأجاب الذى دعانا إلى الشأى :

— ما أحسب المصريين القدماء كانوا قومافى بداءة الحضارة ، حتى
أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا أول
الخلقة أكثر من الآلهة عدداً وخبثاً حتى خشيم الآلهة ، فتقمصوا
أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفئوا من نار شرهم .
بل إنى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة
فى وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى ،
فاتخذت لكل فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان كى يهتدى الجند به .
فلما تم لهم هذا النظام سار النصر فى ركبهم مما أعز أعلامهم عليهم . وكما
يقدر أهل هذا الزمان رمز وطنهم وكما يفتدون بالروح علمه ، كذلك
قدس قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور و قدس— واتبعا
الحيوانات التى تمثلها هذه الصور . وبمر الزمن أصبح هذا التقديس
عبادة لهذه الحيوانات وتأليها لها على نحو ما يفعل عامة الناس فى كل
بلد وكل دين بإزاء أوليائه المقربين .

« ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلى سبباً ثالثاً فى تأليه قدماء
المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا فى ذروة حضارة كاملة . ذلك أن
هؤلاء المصريين إنما كانوا يقدسون فى الحيوانات فائدتها للحياة
الإنسانية . والإنسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة
تحث الأرض وتنسل ثيراناً وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم
يلبس الناس ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس
أمين ورفيق فى الصيد بارع . ومن الطيور ماعبده المصريون لقتله

الغائبين والحشرات الضارة بالناس وبالزروع . أما صاحب الجلالة
القدسية أليس فقد كانوا يعبدون فيه قوة إخصاب الأبقار لتنسل
والأرض لتثمر . وفي نسل الأبقار وفي ثمر الأرض متاع للانسان
وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلا للآلهة بل كانت هى الآلهة
نفسها . »

أتم الذى دعانا إلى الشاى قوله ، وأراد نجىّ أيبس أن يتم حديث
إيزيس ، لكن الشاب استمهل به بآسامة وبإشارة لطيفة من يده وقال :
— ليس أشهى يا صديق من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا
أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تمليقاً . فقد رأيت حنى
أول الأمر على عبادة أيبس ومقاطعتى لقصصك عنه استخفافاً بأمره .
أما وقد ملكت شجون هذا الحديث الشجى على نفسى وفتحت أمام
بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر ، فأستأذك واستأذن إخواننا فى أن أقطع نغم
قصة إيزيس لألقى بفكرة استثارها الآن عندى ما رواه مضيفنا الكريم
عن ديودور الصقلى . وإنى بعد ذلك لآذان كلى تلتهم رواية إيزيس التهاما .
« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ،
ولأنهم كانوا يقصدون فى آلهتهم ما تفيض على الحياة الانسانية من خير .
أليس هذا المعنى هو خلاصة الإيمان الإنسانى فى مختلف مظاهره ؟ !
أليس هو إجلال القوى الظاهرة والخفية التى تمكن للانسان فى الحياة ،
تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطرية
لكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ بالحياة فى خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة
إلا أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان ، وإنما

الفارق بينهما أن الإيمان يتطور لأن إدراك الانسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة ، على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل ، فيؤدى عجزها إلى فناء الحيوان الذى لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة فى السليقة .

» هذه فكرة طرأت الآن على أرجو أن تعينونى على تمحيصها .
وينحى إلى أن جانب الحق فيها أرجح . فمن الحيوان ما مرنت سليقته فأمكن تألف الإنسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتاً فى الحيوان الأليف وحيوان مثله لم يتألف ، إن اختلاف سلوك كل منهما فى الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما ، يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو جمودها . فأنت قد تتألف أسداً أو نمرأ وقد ترى سلائقه الوحشية تخفى . لكن هذه السلائق أغلب عنده مما أدخلته عليها من تخوير . فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الأسد أو النمر ما طبعته أنت عليه ، ويعود الحيوان المفترس بكل شراسته ووحشيته . فأما إن تألفت كلباً أو جواداً كان لتألفك إياه أثر فى سليقته ، فلا تتحرك فيه الغرائز الأولى إلا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضنا على هذا أن الأجيال التى مرت على هذه الحيوانات الأليفة هى التى جعلتها كذلك . فلو أن الإنسان وجد فى الحيوانات الأخرى التى ما يزال يعتبرها عدوة مثل ما وجد فى الحيوانات الأليفة من مرونة فى السليقة ، لتألفها أيضاً ولجعل منها عوناً له فى الحياة . والإنسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الأجيال ، وكانت القوالب الأولى التى سبكت فيها لتهدب وتنقى هى قوالب العقيدة . لذلك أرى

جانب الحق أرجح في قولي : إن العقيدة تحل من الإنسان محل السليقة
من الحيوان . »

بهتنا جميعاً لهذه الفكرة الجريئة المفاجئة ، واشتملنا الصمت زمناً .
ثم قال الذي دعانا إلى الشأى :

— لعلك يا صديقي تستطيع بعد سماعك بقية حديث إيزيس أن
تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه نكون أقدر على معونتك
في هذا التحصيل . وأوماً إلى نجى أبيس :

— عد إذن بنا يا صاح إلى حديث إلهة الجمال والوفاء .
قال نجى أبيس :

— نعم هي إلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها
الظلام يوماً فحسبت تيفون زوجها وأسلمت إليه نفسها وأعقبت منه .
ولولا علم أوزوريس بأنها خدعت لما غفر لها خطأها .

كان الأشيب إلى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر في
جميلة سميراميس ويمد بصره إلى الذهبيات كلها يريد أن يعرف أيها
قصدت . فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

— ولن يضير وفاء أية حسناء أن يخدعها ظلام معبد الحب فينسأها
جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث في الحياة من ضياء
حسنها ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء إلا مظهر تجارى لعقد مالى
أساسه الفائدة هو عقد الزواج ! وهل هو إلا جناية على الجمال
وآلهة الجمال !

ابتهج نجى أبيس بهذا الدفاع الذى أوحته جميلة سميراميس إلى
الأشيب فأضلته ، وعاد إلى حديث إيزيس فقال :

— استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقها الإلهين توت ونوبيس أشلاء زوجها أوزوريس ، وجعلت همها أن تعيد إليه الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالا من الشمع ووضعت الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت الأجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد وحلنا شعورهما ودقتا صدورهما ورءوسهما بأيديهما ، كما لا تزال النائحات اليوم يفعلن ، وجعلتا تناديهن مستعنتين بزملائهما الآلهة لبعثه . فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة : « عد إلى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلى فأنا أختك التى تحب . لا تبتعد عني وعد إلى بيتك حالا فإنك كلما غبت عن ناظرى اضطرب قلبى وحات عيناى تبحشان عنك وجريت فى كل ناحية لى أراك . عد إلى من تحب . عد إلى أختك . عد إلى زوجك . أواه ! يامن وقف قلبه فلا ينبض ، عد إلى بيتك ولا تبتعد عني أنا أختك ابنة أمك . إن الآلهة والناس سيكونك جميعاً ، أما أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء . أفلا تسمع صوتى ؟ أنا أختك التى أحبت على الأرض بمالم تحب مثله . وأما نفتيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة : « أيها الأمير الجليل عد إلى بيتك لتسرى عن نفسك فليس أحد من أعدائك ها هنا . إنهما أختك إلى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك لترى أختيك . لقد هزم أعداؤك وها أنا ذى حارسه أعضاءك . قم انظر إلى ابنك هورس ملك الآلهة والناس . إنه يقيم الطقوس من أجلك ، فتوت ينشدك ويدعوك بترائيله ، وأبناء هورس يحرمون جثمانك ، وروحك تؤدى لها طقوسها كل يوم إذ يحىء الآلهة يحملون

الأوعية المقدسة لتعميد صورتك . عد إلى أختك يا أميرنا يا مليكنا
ولا تبتعد عنا .

وأمسك نجى أيبس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن
إيزيس ، فقال الشاب :

— ما أشبه نواح إيزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم ! أوليس
حل الشعور ودق الصدور والصراخ الذى يشق عنان السماء من طقوس
حزن نساءنا على اختلاف طبقاتهن ؟ أفترانا مع تناسخ العصور
والأديان والحكام والأجناس التى قطنت الوادى خاضعين لحكم ما أنبت
الوادى من عقائد وعادات وتقاليد ؟
قال الذى دعانا إلى الشاى :

— وما طقوس الحزن إلى جانب ما لا تزال تؤمن به على أنه دين
القبط أو المسلمين وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين ! روى
هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن على
حين يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى . وذلك ما نصنع
اليوم . وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة
من الناس وفى دورهم ؛ وما يزال ذلك شأن مزارعينا ، وأنهم دون
غيرهم يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان . وذكر
غيره هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلعتهم يقوم بمثلها
اليوم عامتنا لبعض الأولياء . وفى ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من
أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً بل يضاف بعضها إلى بعض ، وأن
كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم إنما هو بقايا متخلفة من
أديان قديمة هى فى النفس الإنسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة.

المتججرة في الصخور ، والتي لايسهل لذلك زوالها .
 « وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تنمة لحديث إيزيس وبعثاً
 لأوزوريس ما يعيد إلى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات أهل
 هذا الجبل وعقائدهم » .

اتجهت الأنظار إلى نجى أبيس ، كأنما يريد كل أن يعرف مالا يزال
 في نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو في حديثه :

— ولما أدت إيزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفتيس
 وبالألهة ، قتلوا من الأدعية والأوراد لروح أزوريس ما كفى لعودها
 إلى جسمه تمهيداً لبعثه . وهنا تختلف رواية البعث : فمن قائل إنه كان
 بعثاً زراعياً ، ومن قائل إنه كان حيوانياً . والذين يذكرون البعث
 الزراعى يرون أن الجثة حملت بعد الأوراد والأدعية إلى شجرة جميز
 ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام إلى حياة خالدة
 تحياها في السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يرون أن الجثة
 وضعت بعد الأوراد والأدعية في صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت
 فيها سبعة أيام كذلك ، ثم تم بعثها إلى الخلد .

« ثم عاد أوزوريس من العالم الآخر يوما وسأل ابنه هورس عن
 أجمل الأعمال في نظره ، فكان جواب الإله الشاب : أن يثأر لأبيه
 وأمه بمن أساء إليهما . وأعلن الحرب على إله الشر . وكانت بينهما
 موقعة دامت أياما وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً في يد
 إيزيس . لكنها بدلا من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إيساره . وقد
 أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك » .

هنا تدخل الأشيب معترضاً :

— يالهورس من ساذج ! أحسب أن أمه نسيت يوم خدعها الظلام
وألقى بها في أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهي إلهة الخصب
تقسو بتيفون لأنه الشر ، منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل
وحسنات ؟ !

وعجبنا لضلال الأشيب بعد سحر الفاتنة إياه ، واتجهنا لسماع قصة
إلهة الوفاء .

اتزع هورس تاج الملك من رأس أمه ، فغضب لذلك الإله هرفس
وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الإلهة
هاتور رمز إيزيس نفسها . ويذهب القصاص إلى أن هورس ازداد
لذلك غضبا فقط رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند
المؤرخ اليوناني فلوطرخوس . وهو يذهب إلى أن الأم والابن تصالحا
وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصرأ حاسما ، وصارت
إيزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير ، ولعلهما ارتقيا بعد
ذلك إلى السماء راضيين .

« هذا حديث إيزيس في مصر ، أما حديثها في اليونان وروما . .

هنا أشار الأشيب من جديد معترضا :

أمسك بربك وحق أبيس هنية . ألا ترون إلى ذلك الزورق المرخاة
سدوله من حوله ؟ اقصد بنا إليه ياريس . إنى لأتحسس فيه همسا من
نجوى الهوى لا أشك معه في أنه معبد سيدتنا سميراميس . وهذا هو
يتجه صوب ذهبية صديقنا الحليل . فاذا صدق ظنى فما قولكم في أن
نسبق السيدات والسادة إليها حتى لا يحسب أحد منهم أنا تأثرناهم
لغاية ؟

وبدا على حديث الأشيب من الجحد الذي تلهب به الزهرة دماء
عبادها ما ردنا عن مخالفته . وردنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية
القاتنة من جديد ، فأشرنا إلى الرئيس أن يقترب من الزورق المرخاة
سدوله . فأخبرنا هو أنه حقا الزورق الذي استقله السيدات والسادة ،
واستحثه الأشيب كي يسبقهم إلى الذهبية . وألفينا الحليل واقفا على
ظهرها كأنما ينتظر أحدا . فلما رأنا سابحين نحوه أشار إلينا مناديا :
تقدموا فشاركوني في ليلة ساهرة هي جديرة بمثلكم ظرفا وأدبا .
ولما رأنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا ،
وألقت القاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وكانت ليلة
ساهرة أرخى كثيرون فيها لأنفسهم العنان ، وإن أبى نجى أبيس إلا أن
يتم حديث إيزيس في مصر وروما واليونان .

رابعة هاتور

صعدنا إذن إلى ذهبية صديقا الحليل، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس إليها . وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وتلقى الحليل الفاتنة وأصحابها باسماء قرير العين ، وتقدمهم إلى أما كن وثيرة أعدت على ظهر السابحة . وأدريت طرفي فيما حولى فألفيت مقصفا بلغ من السكالم أن كان بشيرا بلبلة قصف تثير في النفس أحلى النى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلسا كجلسنا منهم فى الفندق ، ثم كننا معهم أقل كلفة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمه : هل نسى من تاريخ الآشوريين حديثا أو خبرا . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أبا عن جد حتى لا يتميز الإفرنج عنهم فى قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم إلى العجمة أو كادت . وبيننا نحن نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق، وآخرون جاءوا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم فيثارة والآخر رقاو الثالث عودا والرابع كمنجا . وعرفنا فى العواد مغنيا رقيقا تعرفه مجامع الأصدقاء ولا يعرف المحافل العامة . وفى أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات فى لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية فى عالم موج بالرجال والنساء تغمرهم جميعاً غلالة رقيقة من ضياء فضى

وهواء عذب يحمل معه قرًا منعشًا . وفي مثل هذا العالم يتسرب إلى النفس إحساس الرضا والسرة ، وتجري في العروق آمال حلوة مبهمة ، ويستشعر الإنسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعيم . ويزيد في هذه الإحساس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيب قد ملكه كل شبابه ، فضحكت عيناه وافتر ثغره ونضح بالبشر بحياه ، ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها إلا لترتد إلى قرارة نفسه تزيده ذوقا لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر في مكان ، بل كان دائم الانتقال يحجي من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ، ويتبرع بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنى . وأما نجى أبيس فجلس إلى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم في سمرهم دلف إليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زأريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثا الخليل ومشيرًا إلى نجى أبيس :

— لقد كان صاحبنا وإخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا شيئًا من أمر حديثهم قبل اليوم ، فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليلتنا يتاح لنا ذلك في وقت قريب !

قال الخليل :

— ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية ؟ إن لدينا في هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها إن شئتم معبد الكرنك أو إن شئتم قصر الفرعون أو ما تشاءون من صور حياة آبائنا الأقدمين . وبين أولئك الفتيات اللاتي حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها

وبكل ما فيها إلى عباد آمون بآمتن نسب . وإليها يرجع الفضل في عدة
الذهبية، كما يرجع إليها الفضل في غرام تأصل في نفسى بكل حياتنا المصرية
القديمة . وسترون أنا لن نجد نصباً في إعداد ذهبيتنا إلا ما يجد معد
المسارح في تهيئتها لرواية جديدة .

قال الخليل هذا وأجال بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية ثم نادى
— إلى يا راعية هاتور .

— لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هسل لنا في
ليلة فرعونية ؟

وكأما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى ؛ إذ أقبلت إلينا تشق
موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحوور وذات قساماة تعيد
إلى النفس صورة الفرعونة نفرتيتى ورأسها الساحر . وألقى نداء الخليل
وجواب الفتاة وإقبالها صمماً خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية
راعية هاتور في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء .
واستقبلت الفتاة القمر في طريقها إلينا ؛ فكانت أشعة عاشق السماوات
هالة زادت ابنة الفراعنة رقة وسحراً . وتلفت الأشيب إلى ناحيتها مع
من تلفتوا ، ودارت حدقتاه معها في بطاء دل على ذوقه جمالها . وأدرت
ناظري لمحّة فإذا فاتنة سميراميس تحدج الأشيب والراعية ، وكأما دب من
الغيرة إلى نفسها ما دعاها إلى أن تلفت غيرها عن هذا المفتون بها، حتى
لتخشى أن تفتنه عنها . والصمت مخيم والفتاة تقبل والأعين مشدودة إليها
والخليل يفكر في الليلة الفرعونية ، ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت
الفتيات والنساء حديثهن وتهاقنهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن
الأنظار من جديد إليهن ، ولكي لا يحسب أحد من الرجال أنهن أقل

من تلك الراعية سلطاناً . قالت إحداهن :

ما أعظم سرور الراعية بدعوة الحليل لليلة الفرعونية ! فهي لا تقن
رقصاً كالذى تقوم به فى دورها هذا . وأكبر الحظ فى إتقانها إياه أن
ملابسه تخلع عليها شيئاً من الجمال .
وأجابت جارة لها :

— يجب أن نحمد للحليل على كل حال . فالضيف أسير الحلى .
وأردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة
العذاب فأمتعت النظر ، كما أمتع صوتهما السمع ، واستعاد هذا وذاك
التفات من حولهما ، كما استعادت غيرهما التفات من حولهن .

وتداول الحليل والراعية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم
وسار معهم خلفها إلى الدور الأسفل ، ثم إذا بهم يصعدون من جديد
وإذا ستور تمد ، وإذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد ، وترى
خلال جدر هذا القصر عمدا تذهب إلى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد
الكرنك من ناحية ، كما ظل يطل من الناحية الأخرى على النيل ورياضه
النضرة . ودعانا الحليل أن نهبط وراءه ، وأشار إلينا جميعاً أن ندخل
إلى غرف الذهبية كي يلبس كل منا الرداء الفرعونى الذى يصادفه .
وعدنا إلى القصر المطل على الكرنك ، فإذا الحاضر الذى عرفنا
يختفى ، وإذا عصر سلف يبعث ، وإذا الحفدة تتقمصهم أرواح الأجداد
وإن ظلوا فى ريعان الفتوة وإهاب الشباب . وجلسنا إلى موأند ألقى
عليها بنسيج العصور الغابرة أيضاً . ومدت عليها ألوان الشراب فى أباريق
من فضة . وبقى صدر المسكان خالياً تخطر فيه أوانس زانتين راعية هاتور
وقد اتسحت بثوب أبيض انعقدت أطرافه بين ثديها فى صورة الوردية ،

وظل باديا من خلاله تخطيط جسمها ، ولبست على رأسها شارة
إيزيس قرص الشمس مقتعدا قرني هاتور ، وأمسكت بيدها مفتاح
الحياة . واحتذت حذاء راقصة شد إلى رجلها بسيور من فضة .
ودار الخدم يصبون الشراب في أكواب من البلور صنعت على صورة
زهرة اللوتس ، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها صندوقا صغيراً على
صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطاءه موميأؤه ، وجعلت الفتاة
تكشف عنها كلما وقفت إلى مائدة فرغ الخدم من صب الشراب في
أكوابها المحتسين .

قال الأشيب وقد لبس لباس الراهب :

— ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها إلى
التفكير ! فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع
مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرّون الناس وهم في ذرا نعمة الحياة
بمصر الحياة الخفيف المزعج ، بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه إلى غير
عودة كل من ألقى به يم الحياة إلى ناحيته ؟ أو ما كان خيراً لو أنهم
تركوا ساعات المتاع القصيرة لاتشوبها صورة مريرة ؟

وسمع نجى أبيس سؤال الأشيب ، فأسرع إلى جوابه خيفة أن تظل
حكمة الأجداد خافية على الحفدة ، أو أن يحسب أحد أنهم في كمال
حضارتهم كانوا يعرفون الفرع أو يهابونه ، قال :

— إن أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف إلى
تفكير ؛ فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون إلى مثلها ، فلنغم
كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون كهذه
المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمانينة إلى خلد السكينة الأبدية

وهذا معنى تناوله الناس جميعاً في شعرهم ونثرهم ، وتناوله الندامى في أسماهم . بل لقد أحسب أنه كان لابد أن سيدور بخلدنا لو لم تنبهنا الصورة الفرعونية إليه .

«على أنى أرتاب فى أن يكون هذا المعنى هو ما قصد إليه الفراعنة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه ، وتدلنا على أنهم كانوا يقصدون إلى خير من هذا الخاطر الذى يرد إلى أذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون الموت آخر مراتب الحياة ، ولا يحسبون الإنسان يحرم متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل إنه ليجد فى العالم الآخر مثل متاعه معنا أو خيراً منه ما بقى جسمه مصنوعاً من التحلل مستعداً لأن تعود إليه الروح الشقيقة . وهذا سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع فى قصور القبور . أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون ، فتعود إلى المومياء التى حفظها التحنيط ، فتسمح لها أن تلتذ بمتاع كتاعها فى الدنيا من غير حاجة إلى أكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع . وهى تبقى فى خلدنا وتبقى أسباب نعمة الحياة إلى جانبها مستمتعة بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس فى الحياة كل ورد النعيم ، فلن يزيدهم ذلك إلا إمتاعاً فى المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .

قال الأشيب :

— حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها ولم لا ؟ ألسنا دائماً نعيش على ميراث الماضى ، وغداً هو ابن اليوم ، ومشينا ذكرى شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل نحياها وإن على صورة أخرى .

وبينا كان السقا يصبون الشراب وكان الأشيب ونجى أيبس يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم . واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدءوا يوقعون أنعاماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الأنعام ، وكانت تزداد حيناً بعداً ثم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذى مد رواقه على المكان مهابة ورهبة . وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس الحاضرين جميعاً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مقرباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات ورهبانا ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان ، وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة في النفس قداسة المعانى الانسانية جميعاً وفي مقدمتها معانى الخصب والإنتاج .

وتقارب الصفان ، فإذا الأشيب إلى جانب فاتنة سميراميس ، وإذا هو لذلك أشد إيماناً بإيزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له في معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل ، وتابعت الموسيقى أنعامها شجية في استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً ، مقدساً هو أيضاً ، بدت قداسته على أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها في دعاء واستغفار ، وخطرت

في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواما لدنا يتثنى في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها . وكان كافياً أن تقف الراعية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالا . لكن خطرانها بين صنى الراهبات والرهبان وعلى أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع إلى النفوس أقدم معاني العبادة والإذعان . وأولئك الفتيات اللواتي نفسن على الراعية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين نهبا إياها بنظرات الإعجاب والإكبار . أليس لكل امرأة ما تسحر به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها لتنال هي أيضا من إكبار ما لديها ما يزيد الرجال سحراً وافتناناً !

وبقينا في عبادتنا هذه زمناً ولت الراعية وجهها أثناء صوب المعبد ، فإذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً في نعمة كنسية بنشيد إيزيس يختم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الحليل . وعاد الراهبان والراهبات إلى مواعدهم ، وعاد السقا يصبون الشراب تتبعهم غادة الموميا ، واكتملت حلقتنا وحلقة أخواتنا السيدات والسادة عدا صديقنا الشاب الذي بلغ من عبادته مبلغ الذهول ، وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نجى أبيس فقد وجد في الحفل الفرعوني المحيط به ما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

— هانحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس في ساعة متأخرة من الليل ، مع أن عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهرأ ولا

قصفاً ، بل كانوا يذهبون إلى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الحيط الأبيض من الحيط الأسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الإمام الأعظم رواقى الطلعة حليق الرأس والدقن مرتديا ثوبا من التيل الأبيض بسيطاً كل البساطة . وكان هذا الإمام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبإدمان التفكير فى القديسيات وبتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الإمام مراتب الأنبياء المقربين إلى الآلهة المحدثين عنهم المتحدثين إليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتأثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة نصفها أسود والنصف الآخر أبيض لامع ، للدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثياباً أكثر بساطة من ثوب الإمام الأعظم ، تبقى بادية من خلالها أذرعهم وصدورهم ورءوسهم الخليقة . أما الراهبات فكن يلبسن معاطف تنعقد أطرافها على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، تحمل كل منهن فى إحدى يديها وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى « السستر » آلة القدماء الموسيقية ، يهزونها ليوقظ صوتها الكائنات من سباتها . فإذا جاء عباد إيزيس إلى قدسها ووجبت الصلاة صعد الإمام الأعظم الدرج إلى تماثلها ، فأزاح عنه ستوره ، فظهرت باهرة فى وقفها بما عليها من حلى الجوهر الوضاء ، تمسك بإحدى يديها مفتاح الحياة وبالأخرى الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويمسسون به على الأتقياء ، ثم يوقدون النار لتحرق ما فى المكان من شر . فإذا طهر كل ما فى المعبد دعا الإمام الأعظم الإلهة فلبت الدعاء ، فقدم لها عبادها ماشاءوا من قرابين وضحايا

« فإذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة
ثالثة هى صلاة ختام اليوم يسدل الإمام الأعظم على أثرها الستور على
إيزيس لتطمئن فى لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام فى أول الربيع وفى أول الخريف ،
وكانت غاية فى البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام
أسى على مصرع أوزوريس . ففي الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر
من شهر آتور أو هاتور الفرعونى) كان الرهبان يلبسون على رؤوسهم
صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون ، ويذهبون إلى معبد إيزيس
فيمثلون أمام الشعب المأساة الإلهية الفاجعة ، يقهر فيها الشر الخير ،
وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سحت ، لتنتهى
إلى بعث الخير من جديد دون أن يقهر الشر أو يقصى عن الأرض .
كان الخليل قد جاء إلى جمعنا يحمينا مستصحباً صديقنا الشاب معه
حين كان نجى أيبس فى ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما
سمع عبارة النجى الأخيرة أراد مشاركتنا فى الحديث فقال :

— ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة القدماء ! أخفق أن
إيزيس وأوزوريس وجماعتهما كانوا الخير والشر والصلاح وما إلى ذلك
من صفات ؟ أم كان تيفون البحر ، وأوزوريس النيل ، وإيزيس الأرض
وخصبها ، وهورس النبات الذى تمخض عنه ذلك الحصب ؟ وإن
أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر كانت فى الماضى يغمرها
البحر حتى ما يزال يوجد فى جبالها ومناجها أصداف وآثار حيوانات
بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميئه البحر إلى
الوراء فأخصب الأرض وأثمرها . أم لهذه الآلهة معان فلكية ، فتيفون

هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر مخصب يشمر الحيوان والأرض في حين تحرق الشمس الحرث والنسل ، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذى أوقد للشمس نارها ولظاها ، في حين تبعث مياه الينابيع والأنهر أغنياتها إلى القمر وضياهه . أم أوزوريس هو النهار ، وتيفون الليل ، وإيزيس القمر ، وهورس الشمس ؟ أم هذه كلها صفات الربوبية تجتمع للآلهة متعددين ، وهى بعض صفات الإله الأعلى ذى الجلال ؟!

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :
— والأرباب جميعاً ! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان محل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان ؛ لأن في الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب الأعداء ؛ لأن في النصر احتفاظاً بكل ما في الحياة من نعمة وحرية . وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح في الحياة . وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن أجدادنا ثم آمن آباؤنا . واليوم وقد سخر الإنسان لنعمة غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهربا والجو والأثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو في مظاهر إيمانه جميعاً إنما يبحث عن مكانة له بين كل ما في الوجود تحفظ عليه الحياة في أنعم صورها للمادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته في الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذى يتناوله إيمان الانسان . ذلك بأنه يريد الاحتفاظ بالحياة في خير صورها . فمن الحق إذن أن

الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان .

كانت فانتة سميراميس قد ألفت السمع أول ما حدث نجى أبيس عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، فلما رآته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والإيمان ، شاحت عنا بوجهها ، كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى . أحس الأشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا في الحديث ولا أعارنا سمعه ، بل اندفع يهمس في أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكوام الشراب تطلب الساقى ليملاؤها . فأشار إليه الأشيب ، وسرعان ما حضر تتبعه غادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافات أكوام اللواتس قال الأشيب :

— إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهي ، ولنذكر إيزيس بوصفها جميلة يهجر جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف ، ولا نضيع هذه الفرصة السعيدة في قصص الأساطير وفلسفة الإيمان . وإذن هات يانجى الآلهة حديث الجمال وسحره .

وكانت من الشاب أثناء حديث الأشيب التفاتة فإذا راعية هاتور مقبلة ، فأسرع إليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

— صدق صاحبنا الأشيب . لا خير في قصص الأساطير ولا في فلسفة الإيمان ، وإنما الخير كل الخير في الجمال وحديثه . وطلعتك ومشيتك وحديثك وأدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال بل هو أنعام موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يانجى الآلهة إلا ما ذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة

فيزداد ضياء وإشراقا . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملبياً دعوة الصالحين جميعاً :

— لاتحسب يا صاح أن الرمز بالبقرة لهاثور معناه أن هاتور كانت بقرة بالفعل . وإنما كان ذلك رمزاً إلى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت ككل ربات الخصب ربة الجمال . بل هي في رأى أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة . هي من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان ، وأفروديت عند اليونان ، وسميراميس عند آشور . وحجتهم في هذا أن اسم هاتور معناه بيت هورس . فهي إذن من هورس ما كانت إيزيس في أمومتها له . بل إن بعض المؤرخين ليرون أن هاتور أقرب في نسبها لآلهة السماء من إيزيس نفسها أن كان الجمال مصدر الخصب والخلق . ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة ، بل يراها إلهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها ، وكانوا يقرنونها إلى الآلهة جميعاً في كل المعابد . على أنها في كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرتة ، اللدن قوامه ، الثابتة أردافه وسيقانه ، كما كانت إلهة الزينة والتجلى . ولذلك كانت في كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقا هي أطواق الحب ، ولابسة من الخلى عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهراً .

وأمسك النجى برهة ، فإذا الأشيب قد تحركت نفسه إلى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاي ، فقال :

— هاتور في مصر، وأفروديت في الإغريق، والزهرة في روما، وسميراميس في آشور، كل أولئك كن في الإنسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة. فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً؟ وهل مصدر لإلهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان ولكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة؟ وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ما سواه من صفاتها.

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها إلى جانب الخليل، وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه إلى جانبها، والخليل محقق لذلك يكاد يتميز من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلبها ويرعاها. على أنه إذ رأى الشاب يدنو من الراحية يهمس في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه: — لا يملك الشراب يصاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخموراً. ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب، فأراد ألا يلاحظ أحد على وجهه تغيراً، فاندفع معقباً على حديث الأثيب:

— هاتور والزهرة وأفروديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير. وإيزيس في مصر كانت هي عشتروت في فينيقية وقبرس، وكانت هي سيرس في روما. وتوت المصرية هو المريخ اليوناني. هكذا أذكر أنني سمعت. أوليس هذا دليلاً على اتفاق الناس في تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم في طرائق النظر لما في الوجود؟ بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال إيزيس إلى جبيل بالشام باحثة عن جثة أوزوريس أن عبادة هذه الإلهة انتقلت معها إلى فينيقية وقبرس، وأنها انتقلت من هناك إلى اليونان ثم إلى روما؛ فكان هذا سبب تشابه الأساطير حول البحيرة الكبيرة التي

أسموها بحر الروم ونسجها البحر الأبيض المتوسط . وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فما نحن أولاء اليوم لانعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو في الشعور ولا ظل لها من الحقيقة ، مع أنها كانت تمثل الحقيقة الثابتة في تلك العصور . أولو بعث ميت من أبناء العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أترأه يشك في أن هذه الستور التي تمثل الكرنك وعمده وتماثيله إنما هي تماثيل وعمد من حجر ، وأنه في طيبة لا بين أحضان القاهرة ؛ وفي مكان هذه الأوهام التي كانت حقائق أهل تلك الأجيال أقنأنا نحن حقائقنا لتكون أوهاما عند أجيال تخلفنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ؛ لأن هذه الصورة هي التي تكفل طمأنينته في الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التواني والتجدد . وإذا صح أن بقي شيء من الإيمان القديم لم يتغير — وهذا ما أشك أكبر الشك فيه — فلن يكون إلاميس حياتنا المادية من طعام وشراب أو ميس آماننا المبهمة في خلد هذه الحياة .

استراح الخليل إلى عود الشباب إلى فلسفته في الإيمان أن صرفته عن الراعية وصرفت عنه الحيلات جميعاً . ولم يعبأ الأشيب بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة نافهة مع السيدات والسادة وبالممتع أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحراً . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة إلى شرابه ، فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت في حديث الأشيب الشهي ما ملق زينتها وجمالها ، زادت عليه عطفاً بأن زادت عليه دلاً . ولم يصغ إلى

حديث الشاب إلا نجى أبليس . وإذ رأى فيه تجديفاً سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الأقدمين قال :

— لا تصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير الإيمان ، ولا تحسب أن الناس انتقلوا في بضع ألوف السنين القليلة التي يعرفها التاريخ بمقدار ما رويت . فلو أنك عدت إلى فلسفة الأقدمين وقرتها إلى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الإيمان والشك والإلحاد يعرفها حكماء الفراعنة والإغريق كما يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته . ثم إنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر مما تسمعه في أساطير الأقدمين وهماً وخيالا . وبين هذه المذاهب الفلسفية والأوهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة وما تزال ، وإن كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها حبا فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه إليها . وأنت إذا رجعت إلى رأى حكماء الأقدمين من الفراعنة والآشوريين والإغريق والرومانين رأيهم جميعاً يقولون إن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون غاية حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دهم إلهامهم على هذه الحقيقة ، فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة ، ثم لم تغير مباحث العلم مما أذاعوا كثيراً . وأحسب أن الناس ما داموا أناساً وما دامت أدواتهم في البحث هي حواسهم ، فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وإن اتسع ميدانها ، وإن عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم . كان أهل القصر الفرعوني بعد نشيد إيزيس قد اطمأنوا إلى مجالسهم ، وعكفوا على شرايهم ، وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات ، وكنت لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب ما احتسوا في أكواب اللوتس إلى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات

رقية محتشمة ، وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وأدى هذا إلى زيادة في التعارف والتفاهم ، وإلى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا ، فأومأت إلى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا ، فإذا به يهمس في أذن العواد ، وإذا بفرقة الموسيقى تختفي وراء ستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين ، فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للنظر الثاني من مناظر الليلة الفرعونية ، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا ما دوره فيه إلا كما يعلم ما تنجأ له الحياة من مفاجآت ، وإن كان في مفاجآت الحياة ما يفجع ، على حين كان الجمع ينتظر في مفاجآت هذه الليلة ما يلذ البصر والسمع .

أفروdit

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل التي انقلبت معبدًا
فرعونيا قديما ، وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر
الثاني من مناظر هذه الليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل
أن حل فعل الشراب عقدة الألسن ، وبعث إلى النفوس من معاني
الابتهاج ما أعجزها عن السكينة . وأضاف ضياء القمر الذي ازداد نحولا
ورقة إلى بهجة النفوس هياما بالجو السائغ ، وهياما أكثر منه بدل
الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا . ولبثنا على ذلك برهة لم تطل ، ثم
إذا بنا نحس بادئ الأمر ثم نستيقن بعد ذلك أن أصواتاً موسيقية بعيدة
تجىء إلينا مبطنّة مبطنّة ، كأنما هي تهبط من سابعة السموات . ووقفت
راعية هاتور مبطنّة مبطنّة هي أيضاً تستقبل هذا الصوت السماوي
الهابط إليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما كادت قامتها تنصب
تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها إلى ناحية الصوت ، كأنما تستجدي
من الآلهة مزيداً في سعادة الليلة . وفي ضراعة استجداء الآلهة رقصت
الراعية رقصاً قدسيا ، فلم تترك وسيلة لاسترضاء أهل السماء أو للتأثير
فيهم بها ، إلا لجأت إليها . وما أحسب أن هذا القوام المدن المثني
استعطافا الواهب نفسه للأرباب هبة حلال ، إلا نال رضاهم وما يطمع
فيه من نعيم . فلم يكدها الرقص ينتهي حتى كانت دقائق الموسيقى
ترتفع في أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا
متهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من

سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالإذعان لمشيئتها وبالإمعان في الطرب . على أن القوم لم ينتظروا طويلا ليعرفوا هذه المشيئة ؛ فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشدًا :

«شكرًا للأرباب، أرباب السماء . قد منحونا غبطة وهناء ، فأنعموا بالعيش في لج القمر ، عاشق القبة الزرقاء وهاب الثمر ، ثمر العشق لمن جن غراما . شكرًا للأرباب ... »

وعلى أنعام هذه الأنشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء إلى رقص الشكر ، ومن التثني في ضراعة إلى القفز في مرح ، كأنما تريد أن تطير إلى آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقبيلًا . أما الجمع فاندفع يغني : شكرًا للأرباب أرباب السماء . وفي نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالأنعام النسوية المشجية ، وإن تميزت هذه الأنعام كما يتميز الماس ركب على الذهب الأبيض . وأمسى القوم في أنشودتهم وفي رقصهم زمنًا ، حتى انقلبت الموسيقى مرة ثالثة إلى أنعام ردت النفوس إلى الشعور الديني ، وعادت بالمنشدين الى احترام معنى لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الأول الى أن يقفوا صفيين رهبانا وراهبات لتخطر بينهما راعية هاتور راقصة رقصاً دينيا هو رقص التوبة والاستغفار خرت في ختامه ساجدة وقد علا بالنجيب صوتها . وما كان أشد دهشتنا حين ألفيناها ، بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن اتجه كل إلى مقعده يريد أن يعود إليه ، ما تزال دمعها تنهل على وجناتها الحمرية اللون . فلما سكن روعها قال الذي دعانا إلى الشاي :

١ — كذلك الحياة : ضراعة إلى النعيم فهل منه فزهد فيه وتوبة

عنه . صباً يتوئب ، وشباب يستمتع ، وشيوخوخة تخشى وتستغفر . رجاء ما نكاد نحسبه تحقق حتى نراه حلماً تطاير . هذا معنى نراه كل يوم بأعيننا ، لكنه لا يترك من الأثر في نفوسنا ما كان لدموع الراعية التي أذابت قلوبنا وفتحت على هذا المعنى نظراتنا التي لا ترى كثيراً مما تقع عليه .

وعادت كل جماعة إلى مكانهم ، وعاد الأشيب مع السيدات والسادة مجلس إلى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقد ظل على مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وإن كره الخليل هذا التحكك الذي أثار من غيرته . على أنه في رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن ينادي السقاة ليدوروا على الجمع بالشراب ، وسرعان ما امتلأت الأكواب أثرعها السقاة تتبعهم غادة المومياء . فلما عاد القوم إلى شرايهم استصحب الخليل الراعية إلى مجلسنا مع السيدات والسادة آملاً أن ينصرف الشاب إلى حديث غير حديث الهوى . ولم يخطيء الظن ، فما كاد يستقر به المقام حتى اتجه إلى ناحية الذي دعانا إلى الشاي قائلاً :

— حق ما ذكره صديقنا نجى العجل المقدس . إن الناس اليوم هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التي يعرفها التاريخ من تفكيرهم . لكنني بأزاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسي ، أصحیح أن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم ؟ وهل صحیح أن في الوجود حقيقة مجردة غير هذه الحياة التي نحيا بما فيها من شهوات وأوهام وآمال وبما تنتهى إليه من تفران وتجدد ، يهبط بجيل إلى غيابات الفناء ، ليطفو بجيل آخر إلى عالم الشهوات والأوهام والآمال ؟ وخير ما في هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن الآن فيه من نعيم

كنا نتهل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن تعود الراعية الساحرة إلى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعاً .

فأسرع الخليل خشية أن يعود الشاب إلى ما يثير غيرته فقال :

— لقد ذكرتم أن هاتور في مصر هي سميراميس في آشور وهي أفروديت عند الإغريق . وقد أسمعنا نجى أيبس من أمر هاتور حديثاً شهياً ، فهل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث ؟

وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعاً ، فلا يضطر أن ينبه أضيافه إلى فضل الراعية وحبها لها في إعداد هذه الليلة لمتاعهم ، وأن ينبه الشاب إلى ألا يخرج به الشراب عن صوابه .

وكان الأشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التي صدفت عن صاحبها الأول لنسيانه إياها في شرابه ما جعله يملق جمالها بنظراته دون أن يستطيع قولاً إلا همساً لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها . لكنه إذ سمع دعوة الخليل إلى قصص حديث أفروديت ، وإذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني الحياة محققة على الحياة ، فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة إلى مخاطبة صاحبته في شخص إلهة الرغبة . لذلك سارع إلى هذا القصص في لهجة مطمئنة تنطوى طمأنينتها على شيء من الإيمان بأفروديت يشبه إيمانه بسميراميس وفانتتها . قال :

— ليست إلهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب ، بل هي فينيقية من قبرس . ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة

إيزيس جليل باحثة عن أوزوريس . على أن أزيود يذهب إلى أنها نشأت نشأة أخرى . ففي معركة بين الإلهين القديمين أورانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول ، فسقطت هذه البقايا المقدسة على لج الموج ، فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرس الإلهة الساحرة ذات التاج الذهبي . ويذهب هوميروس إلى أن الإلهات أعجبن بأفروديت ساعة رأيها ، فأنشدن في حضرتها أغنيات المرح ، وزين آذانها بأقراط الذهب ، وخلعن عليها ما كن يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت زينتها خرجن بها إلى الآلهة حافات من حولها . فما كاد الآلهة يرونها حتى هام كل بسحرها وتحركت فيه لواضع الرغبة وتقدم يريد منها زوجها وزينة لمضجعه الإلهي وكاملاً لربوبيته . وكيف كان لأى منهم سبيل إلى النجاة من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها ، وكان يتضوع مع عذب شذاها سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جميعاً .

« على أن إلهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تسخر من رغبة كل إله . وكانت من الكرم والفظنة بما دعاها إلى أن تصل بين الآلهة والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به من كبرياء الآلهة وحرصهم على ألا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم ، فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء ، وجعلت تخدع الآلهة في الناس والناس في الآلهة ، فتدس في مضجع الإله جميلة من بنات حواء ، وفي مضجع الإلهة جباراً من بني آدم . وكانما دفعتها الرغبة آخر الأمر إلى أن تذوق ما أتاحت لغيرها ذوقه ، أو كأنما

حنق عليها أبو الآلهة زوس، فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له غيرها من الآلهة . لذلك ما لبثت أن رأت أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الأيذا حتى امتلأ جسمها بجباله الساحر سحر جمال الآلهة غراما ورغبة . فأسرعت إلى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى استحمت ثم عطرتها بالعطور الإلهية ، وازينت ولبست ثيابها النمامة ، وخرجت قاصدة سفح الأيذا ، حتى إذا رآها أنشيز جن بها ما يجن كل من رآها من الناس والآلهة طرا . على أن الخوف ملكه أن تكون إلهة فيصيبه من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا ، وإنها جاءت إليه بأمر أبيها لتصبح له زوجا . ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبرا . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التي صادها ، فذهب بها إليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولما أفاق من غشيته وبصر بها وقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها ، فتضرع إليها ألا يصيبه ما يصيب من تخالط الإلهات الخالدات من ذهاب الشباب . فطمأنته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين يهدم الناس هدمًا ، ثم أنه سيعتاض من هرمه ومن مشيبه أبناء من الآلهة تخلد فيهم قوته . أما هي ، أما أفروديت ، فسيصيبها من فعلتها معه سخرية الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها . لذلك حذرت أنشيز أن يقول شيئاً أو يفخر بما صنع ، وإلا أصابته الصاعقة بإذاعته سرا يجب كتمانها .

« وإنما كانت صلة أفروديت بأنشيز عمالية ساعة . لكنها أولعت حبا بأدونيس ، حتى لقد ذهب يوماً للصيد فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحاً مميتاً ، وكان هذا المنظر بمرأى من أفروديت ، فطارت

إليه ناسية أن تحتذى ، فوطئت قدمها شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم . وكان الورد إلى يومئذ أبيض اللون فاحمر لونه من دم أفروديت ، وأقامت تبكي محبها زمناً أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل معاني الوفاء .

« ولأفروديت غير هذا من قصص العتب بالآلهة والناس استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه . على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة إلى الشاب البارع باريس لا يجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة الإلهات الثلاث في الجمال فاحتكمن إلى باريس . وكيف كان له أن يتردد في حكومته بعد الذي توضع به جمال أفروديت الباهر الفاتن . ولما حكم لها أرادت العتب بمنافستها هيلانة زوج أغا ممنون ، فبعثت إلى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها مرتضية الشاب الذي حكم عليها خليلاً لها . وكانت هذه الفعلة سبب حرب طروادة . وفي هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين لصاحبه ، فجر الزوج باريس من خوذته . لكن أفروديت أسرع إلى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فأثقتته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذي رأت من ضعف خليلها . لكن إلهة الرعد هددتها إن هي فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة ، وأرغمها بذلك على أن تظل في أحضان باريس رغم احتقارها إياه لضعفه وحنقها على نفسها .

وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعاً إنانا وذكرانا . وكذلك حكمت أفروديت آلهة الأولب كما حكمت الناس بكاء جمالها

الساحر . وحق لكل من منحت مامنحت أفروديت أن تجلس على عرش
الجمال حاكمة على القلوب والأرواح والأفئدة ، مسخرة لرغباتها الآلهة
والرجال تسخيراً يستريحون له ويرضون عنه ، بل يرغبون فيه
أعظم الرغبة . »

في هذا الموضع من حديث الأشيب التفت الشاب إليه وعلى شفته بسمه
الساحر فقال :

— تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة
والجملات . حدثنا عن أفروديت إلهة البغى والفجور ، وقل لنا بعد
ذلك إنها إلهة تستحق العبادة ، وأن تقام لها الصلوات ، وأن يحرق لها
البخور . ولك أن تذكر أ كثر من هذا أن الإغريق القدماء الذين
امتازوا بالفطنة والذكاء والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق ،
قد شادوا لبغيتها ولفجورها من المعابد مالا أدرى أى دافع يدفعك إلى
التحدث عنه بكل هذا الإطراء والإعجاب .

أتم الشاب حديثه ، فأدار الأشيب إليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها
على شفثيه ابتسامة ازدراء وإشفاق ، ثم شاح بوجهه وتوجه به إلى ناحية
صاحبه الفتاة وقال :

— يخطيء الذين يحسبون أفروديت إلهة البغى والفجور .
إنما هي إلهة الحصب ، تريد أن تهدي للعالم أجمل ثمرات الحب وأبهىها .
ولذلك كان الإغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون
لها من الأبناء في مثل جمال أفروديت وذكائها . وكيف تريد بإلهة
الجمال والرغبة ألا تهب من هذه الفضائل لكل مختارها ؟ أو لو ضن
إله الحكمة بحكمته على الناس أبقى مع ذلك جديراً بالربوبية ؟ ! ولو ضن

إله الحصاد أو إله الخصب بالخصب وبالحصاد وترك الأرض جرداء قاحلة
لموت الناس جوعاً أو ليطعموا الزقوم أياكون أيهما قمينا بقليل أو
بكثير من حب الناس واحترامهم ، والناس مطالبون بهما لكل
إله ؟! فماذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من أفروديت أو من سميراميس
أو من كل إلهة من آلهة الجمال والخصب إذا هي اتصفت بالكرم
أول صفات الآلهة ، وخلعت من جمالها ومن رغبتها على العالم ، لتزيد
العالم جمالا ، ولتزيد الناس في العالم رغبة ؟! ولسميراميس ولأفروديت في
العالم رسل من بنات حواء هن مثل جمال أولئك الآلهة ، ويملكن من
وحى الرغبة ما كانت الآلهة تملك . أولئك الرسل يباركن العالم ويعثن
إلى جوه شعراً ونعمة .

وفي هذا الموضع من حديثه زاد توجه الأشيب للفاتنة ولمعت
حدقتاه بندى بللها وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة إليها لتردها إلى
حنايا فؤاده . وشعرت هي منه بهذا ، فتندت نظراتها هي أيضاً ، ونسيت
صاحبها العاكف على شرابه فما يسمع مما يدور حوله من الحديث
شيئاً ، ولا يتعفف عن أن يحيل عينيه في الراهبات حوله لا يفضل
منهن واحدة على أخرى . وبدت من الفاتنة حركة دلت على حرصها
على أن تبدى جمال ذراعها ، كأنما تريد أن يمين عنهما للأشيب المسحور
بجمالها لتقول له : ها لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد تطويقهما
شيئاً . وتابع الأشيب حديثه وقد تندى صوته كما تندت حدقتاه فقال :
— تبارك أولئك الرسل العالم ، ويعثن إلى جوه شعراً ونعمة .

وإذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب ، فحسبهن فضلا أن يوحين
لغيرهن من تلك الأوعية حرصاً على أن يثمرن ثمراً جميلاً . ألسن

تروى إلى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذى ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة ، وتجاهد أكثر من ذلك لتتسل نسلًا يخفض من نسبة القبح فى العالم . ولو اقتصرت رسالة أولئك الرسل من ذوات وحي أفروديت ، وعددهن على ما لا يزال عليه من قلة ، على أن ينفجن العالم بشمرات جميلة ، ولم يكن المثل الذى تجاهد غير الجميلات ليكون ثمرهن مثله ، لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم إلى نواحي الكمال كما تدفع رسالتهم الأفروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الأشيب كان متجهماً بكل حديثه هذا إلى فائقته فقد افترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بساط الرضا لسماع قول هذا المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث إلى ناحية الصاحب الذى يملقها . وكان الخليل قد نسى الشاب ونسى أنه صاحب الليلة ، وترك نفسه لعواطفها ، وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة . ألم يكن قد أخذ هو أيضاً من الشراب الحظ الذى ينسى الحكيم قيود الحكمة ! ثم إنه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كل فى شغل بنفسه وبمن يستلين فؤادها . وكان ذلك كله يحدث فى رهبة المعبود الفرعونى الذى ازداد رهبة أن أطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثانى كل الأنوار الساطعة ، فلم تبق إلى جانب شعاعات القمر التى تخترق الستور سوى أضواء مستورة بحجب مختلفة الألوان تزيد جمال كل جميلة وضوحاً ، وتخفى ما أحدثه عبث الزمن بالوجوه ، فتلبس الكل حلة الشباب .

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة فى عذب حديث الأشيب وحاول ثرثرته ، ثم أجالت النظر فيما حولها ، فإذا بها تجد صاحبها الأول قد غادر

المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة ، أو كأنما وصلت النشوة من غور نفسه حتى نسي كل ماحوله ، فهبط إلى إحدى غرف الذهبية ليمطى فيها . وأحس الأشيب تغيراً في بسمت الفاتنة لم يرتب في أن الأسف على ما حل بهذا الصاحب كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلاً ، وما لبث أن انقلب إلى زيادة في إقبالها عليه وفي صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا في إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامتها وضياء كل جمالها ضياء زادت الرغبة ذكاء فضاعفت جماله . وعقد لسان الأشيب إزاء ما رأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر إيضاحاً عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر به عنها . وأي كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار قدسية يمكن أن يعبر عن التفاني في عبادة الجمال والإخلاص الصادق في العبودية لفاتنته ! وذلك الإخلاص وهذا التفاني يتضاعفان إذا حلا نفساً كنفس الأشيب أولعت طوال حياتها بتقوى الله وتورعت عما عند عباده ، ولو كان ما عند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وإن نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتز به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفرف فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجوع من واجب المضيف ، فإذا به يهيب من جديد بالسقاة وبغادة المومياء ، وإذا به ينادى العواد وأصحابه :

— هلموا يارفاق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصحب جميعاً يغتبطون أكثر الغبطة إن أتم أنشدتم « غننا في الشوق أو غن بنا . »

وأصلح الموسيقيون آلاتهم ، وغنى العواد أنشودة كليوباترة ،
وعاودت الجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام
آلهة الجمال والهوى . وردد الليل الصامت على نواصمه الرقيقة
وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الأوتار وألحان المغنى الذى استثار
من طرب الحضور واستحسانهم ما زادهم عرفاناً لفضل الخليل .
فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً ، قال الذى دعانا
إلى الشاى :

— ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباترة بأن ملوك مصر القديمة
وآلتهما كانوا يعيشون فى حياة شعرية لا تقل عن حياة أفروديت كما
وصفها لنا صاحبنا ؟

قال نجى أبيس :

— كلا لم يخلع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذى
خلعه الإغريق على آلهتهم . وإذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث
الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية ، فلعلها من بين ربات عرش
مصر وأربابه الوحيدة التى خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها
من العذر أن لم يكن دم آبائها مصرياً خالصاً ، ولم يكونوا عباداً
مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا فى قصص
إيزيس ولا هاتور ولا أية إلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان
عن آلهته وإلهاته . ولعل ذلك يرجع إلى الفرق الكبير بين طبيعة
مصر وطبيعة اليونان . فبينما مافى هذه من جبال وأودية يجعل سماءها
عرضة لتغيرات كثيرة تبعث إلى النفوس ألواناً مختلفة من الشعور
والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون ، إذا بمصر ساكنة

إلى حياة واحدة هي الحياة على ضفتي النيل في نضرة الوادي الدائمة، تنفجر عنها الصحراوات إلى آفاق الآفاق وتظلمها سماء دائمة الصفو . هذا النوع من العيش أدعى إلى التفكير في القديسات ، وأولها الموت ثم ما بعد الموت ، من تلك الحياة الإغريقية التي ينسى حاضرها مستقبلها ، ويجعل أهلها يكبون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل في الحاضر . وليست حياة باكوس إله الخمر ولا دمتر إلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأما آلهة مصر الفرعونية ، فكانت زين جباههم جميعاً مسكنة هي مسكنة خلد الوادي المطمئن إلى حاضره طمأنينة تبعث بخياله وبفكره إلى المستقبل الرهيب الذي ينتظرنا في الأبدية . هاته المسكنة ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة أوزوريس وإيزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة إله الشر نفسه . جباههم جميعاً مطمئنة كجباه المصريين جميعاً ، في حين تشتعل في خساياهم نار دائمة السعير هي نار المستقبل والتفكير فيه . وهذا هو ما دعا الفراعنة الأقدمين إلى أن ينقروا في الصخر قبورهم وأن يعدوا فيها كل معدات الحياة الأخرى ، كي يكفلوا من طمأنينتها ما كفلا من طمأنينة الدنيا . وهذا هو ما جعل صحارى مصر مأهولة في عصور كثيرة بمعتزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوما وصلاة لينالوا الرضا في الحياة الآخرة . وهذا كذلك هو ما جعل مصر مهبطاً لوحى الحكمة أكثر منها مهبطاً لآلهة الشعر وشياطينه .

كان الشراب قد أخذ لب صديقنا الشباب . لكنه كان من قوة الإرادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشى أن يجد الناس

في هذه النوازع موضعاً لنقد . لذلك ترك المحبين يعودون إلى التناجي بالأسرار ، واندفع معقبا على قول النجى :

— لست أعتقد أن الفراعنة من أجدادنا قد قصروا أنفسهم على

الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لا تعنى إلا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم إلى جانب آلهة الخير ، آلهة الزينة كهاتور ، وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من ألوان الحياة . ثم إن فى القليل من القصص الذى قرأنا عنهم شيئا كثيرا عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها . ولعلمهم كانوا كمثل العالم الوثنى فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقا اجتمع له من الحكمة حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه أس من أساس الحياة ترانا ننتقل به إلى النظام الفكرى الذى ألقناه والذى يتوهم أن فى العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فاذا كان المتاع هو هذه الحقيقة وجب التوفر على الحاضر إلى حدوفر الإطاف فيه بما يخرج به عن معنى الخير الصحيح الذى له إلى النقيض منه ويجعله شرا بحتا . أما هؤلاء الأقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصد فى المتاع ما تمليه غريزة الاحتفاظ بالنفس والاحتفاظ بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير على أن دوام المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إمعان وإدمان ، بل بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به ، كما أنك إنما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعها كل يوم بالنوم إلى الحد الذى يريح النوم جسمك فيه إلى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة ، على أنهما ضدان متناقضان ، فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة ، وهما ضدان . وأنت فى حاجة إلى الامتناع وإلى المتاع حاجتك إلى النوم

وإلى اليقظة . وهذا شأن كل حقيقة إنسانية يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة ، أى إنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فأما هذه الأمور التى نسميها حقائق لأنها ترضى منطق العقل وحده فخطئها من الحق ضئيل ، أو قل إنها ليست من الحق فى شىء .

ومضت بعد حديث الشاب برهة صمت أعقبها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره . ثم عاد التهامس إلى مثل ما كان تكلؤه أفروديت برعايتها ، وكان الليل تولى مدبرة أعجازه . وكلما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون إلى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون السيارات إلى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد يدرى فى أى سيارة جاء ، وإنما كان يعود إلى حيث يريد فى السيارة التى يدعى إلى العودة فيها .

واعترضت فاتنة سميراميس لأصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها مضطجع فى الذهبية ، ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكذب ترى المكان خالياً إلا من الخليل والراعية ، وترى رجال الخليل ينزلون ستور المعبد الفرعونى لتعود الذهبية كما كانت ، حتى أشارت إلى الأشيب قائلة فى ابتسام : — هل لك فى أن ترى مطلع الشمس على وجه أبى الهول عند سفح الأهرام ؟

ولما أجابها فى طرب واعتباط إلى ما أرادت ، استأذنا الخليل والراعية وخلعا لباس العبادة ، ثم استقلا سيارة صاح الأشيب بسائقها : هيا بنا إلى الأهرام . وصاحت الفاتنة : — هيا بنا ، إلى بيت منا .

حكم الهوى

كان لنا في قرية ... من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره دائماً بمشايع الفلاحين ومن سواهم من أصحابه وغير أصحابه ومن العطاء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من أصحابي نمضي عنده كل عام أسابيع نطحن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فإذا ذهبنا إليه استقبلنا بالبشر والترحاب ، ونزلنا منه في رحب وسعة ، وقضينا وقتاً بين التنزه في رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التي تقام لمسرتنا ، وبين المزارع الواسعة تقطع شاسع مسافاتها سعياً على الأقدام أو ممتطين متون الجياد . ولقد غرس صاحبنا في مزارعه كثيراً من الشجر أعان خصب الأرض على نموها وكثرتها ، فكانت للسائرین تحتها ظلالاً ظليلاً يبعث إلى النفس أنساً ومسرة ويقبها حر الشمس أيام القيظ .

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون، على تقدم سنّ أبهم ، يتمتعون بلذائد الطفولة ويرتعون في نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العباداة . فإذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ، ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعم . وإذا اقترب أحدهم منه أخذه إليه في تلطف وقبل جبينه النقي وهدق إليه طويلاً ، ثم أجلسه على ركبته ومسح شعره ، وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد . وكذلك كان غلوه في محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه .

وقد انتقلنا يوما ونحن عنده من غرف دار الضيافة إلى فناء رحب
لنشاهد ملعب خيل اجتمع إليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من
فرح كانوا يتسابقون فيه . وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف بجوار
أبيه ، فرفعه إليه وقبله وأجلسه إلى جانبه . وسرعان ما انتظمت الحلقة
فدق الطبل وتقدم إلى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن
والساق طويل شعر الذنب ضليع . وراض الفارس جواده ، حتى إذا
تمكن من تتبع إيقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح ، يترنح
ويعيل ويدل ويعجب ، يرفع رأسه تارة فتمسح أصداعه « كرا ريت »
رأس لجامه ، ويتقدم إلى الأمام مسرعا تارة أخرى فيضيف إلى نعمة
المزمار نعمة صريف الأهلة الفضية التي تزين واسع صدره ، ثم إذا به كأنه
ثمل انتشى فتثنت أسوقه حتى كاد بطنه الضامر يمسح الأرض . وما هي
إلا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة ويسرة في كبر وخيلاء .
وإنا لذلك مأخوذون برقص الجواد إذ أقبل أحد وجوه أهل
البلد فوقف القوم يحيمونه ، وأجلسه رب الدار إلى جانبه ، وقام الابن
فوقف مع الأطفال الواقفين . وعاد الجواد يدهش الناس بتمايله وتثنيه ،
وبدله وكبره ، وبلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة
على إبدائه حين تفتن في لين الحركات ، وتثنى القد ، وحديث الجسم كله
بما يستكن فيه من أنعام الجمال . فلما أتم دوره خرج يتبعه الإعجاب
والعطف . ودخل الحلقة جواد أشهب ليس به شامة إلا ما سال من
محاجره . وما كان أكبر الفرق بينه وبين سلفه ! احتاج فارسه إلى
أن يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وماد
وسط الجمع هرج بدل صمتهم الأول . وليت هذا الأشهب ما خرج .

فانه لما أمضه السوط ومزق جنبه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ، ونال ابن صديقنا المحبوب من الدعر ما وقع معه مغشيا عليه ؛ فقام أبوه كالجنون يجرى إليه ليرى ما حل به ، وجعل يحقق اليه ، فاذا عيون مغمضة وحدود مصفرة ولون ذاهب ، فصاح : « يا بني ! » صيحة سمعها الناس وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم في كلمة عزاء لهذا الأب الذاهل يشاركه بها في ألمه بعد إذ دعا هو الناس ليشاركوه في غبطته ومسرته . وأحطنا نحن بصديقنا ، ومن بيننا طبيب أراد أن يستخلص الطفل من يد أبيه ، فاذا الأب ممسك بابنه حريص عليه تحتلج قلبه الزفرات وتجول في عينه العبرات ، حتى كأنما بداله اليأس منه ، فهو يريد أن يعانقه عناقاً أخيراً طويلاً . ثم ذهبنا إلى دار الضيافة واقتدناه معنا إليها . فلما احتوتنا الدار أمسك الطبيب يد الطفل ونظر إلى وجهه ، وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه ، فاذا الطفل يفتح عينيه ويحيلهما في الغرفة وما يزال به أثر الدهول . فلما رآه أبوه رجع إلى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زایل الولد ذهوله وعاد إلى الحياة وعأوده تورده الجميل . بعد أيام وقد انصرف أصدقائي لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأني ، وبقي صديقنا معي يحادثني ، أقبل علينا هذا الابن وجلس معنا . فقلت لأبيه في ابتسامة :

— لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه . ولا أنكر عليك أن أبا يحب أبناءه حبك لأبنائك جدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .
فتهد طويلاً وقال :

— أى هم وأى شجن رأيت ! لقد قضيت طوال السنين وحياتى
فى شجن وهم حتى ابيض شعرى وشاب مفرقى . ثم انقضى الهم والشجن
بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الأبناء الذين ترى .
أفترانى بعد ذلك مغاليا إذا بلغ حى لهم الجنون ؟ !
لم أفهم كل ما أراد أن يقول . لكننى أدركت أن له فى الحب
حديثاً طويلاً ، وأنه قاسى فى سبيله أكثر ما يقاسى الرجل ، ثم حصل
على من أحب وبني بها ، فأنجبت له هؤلاء الأبناء ، فشاقنى أن أقف على
همه الأول وشجنه الماضى ، فقلت : أى هم تريد ؟ لعل لك حديثاً لاتضن
علىّ بذكره ! قال :

— إنه يا صاح حديث حياتى . وما ذكرته مرة وذكرت كيف
توج القدر جهادى بالظفر إلا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد
فيها . وإنك لصديق وفى لا يضمن عليه بشىء ، فاستمع إلىّ :

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى
ينحوست سنوات ، جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما
كساها الشباب بديع حلته أخذت قلبى محاسنها ، وفتنتى جمالها ، وجعلت
أختلس اللحظات لأخلو بها أحدثها متعارف القول ومألوف الحديث ،
وأشعر بكل ما فى ذلك من نعمة ومتاع وحياة . ثم أحسست أن لى فى
نفسها مثل ما لها فى نفسى ، ففاتحتها حديث الحب ، وتعاهدنا على الوفاء .
ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، وزداد نحن إحساساً
بعظيم ما له من سلطان علينا ، حتى بلغنا من ذلك أن كنا لانتفارق إلا
على موعد للقاء ، وأن كنا نقضى ما بين اللقيين فى شوق ولهف

ما أشدهما ! فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار . فهاهى الأمر وأزعجنى وأدخل الهم على نفسى ، وكدت أجن من فرط ما بى . ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر . ففتقت لى الحيلة أن أستعين بعجوز تردد على بيتنا لأستطلع رأى محبوبتى فيما اعترمت ، وجعلت أحابى العجوز بالإحسان ، وأرضخها أشياء ضئيلة القيمة ولكنها ذات شأن فى نفوس أولئك الرقيقات . فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتى فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى . فلما اطمأنت إلى حرصها على لقيائى فكرت مع العجوز فى وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها . ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت السنين بريد المحبين ، ومستودع سر المشوقين . وكانت لقيانا كل ليلة فى فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا فى الجامع يصليان الفرضين ، ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . فى هاته الساعة كنا نلتقى فنجدد عهدنا ، ونتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التى تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضى . فإذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما كان أمر ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل فى اللقاء ! ثم تحادثنا فى أمر الزواج كما ينتهى ما يوجب الفراق . لكن الشعور بأن الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الإخلاص ، تخمد سعي نار الحب الذاتية ، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نقترح أحداً من أهلنا فى أمره . وبقينا قانعين بتلك السويدة بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ما تحويه من سعادة .

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس

النعم . وإنا لجلوس ذات ليلة نتناجى إذ أقبلت العجوز قبل موعدها مدعورة تنادى بصوت مخنق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل والثبور ، قائلة : إن أبا محبوبتي عاد قبل عادته ، كما كان على علم بما بيننا . فانه ما لبث بعد أن تخطى عتبة الدار أن سأل عن ابنته وألح في المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون .

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولاني الجلود . أترانا سنفتضح؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتي بسببي ؟ لا . لا ! إني لن أحتمل هذا . ولابد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر لحظة حتى ملكتني فكرة اللحاق بأبي ومصاحبته طوعا أو كرهاً إلى أبيها وخطبتها إليه زوجالي ، وملازمته حتى يدعن لما أريد . وأخبرت صاحبتي بعزمي ، وطلبت إليها أن تبقى حيث هي حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أبيها فتدخل هي إلى الدار خفية حين يكون أبوها مشغولاً بنا عما هو فيه من الهياج . وهرولت مسرعا إلى أبي وناديته وكان لا يزال في المسجد ، فخرج إلى وتبعني من غير تفكير ومن غير أن يسألني عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رأي على من اضطراب لتسوقه كي يتبعني ويقضى طلبتي وغرضي . ولم أجد كبير عناء في إقناعه بالذهاب من فورنا إلى جارنا نخطب إليه ابنته . ودخلنا منظره الرجل وبعثنا له بالخبر بقدم أبي إليه . فما لبث أن جاء متكلفاً بالبشاشة مطرحاً ما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبي وإن لم تخف على نظرات منه كانت تتجه أحيانا إليّ وبها شيء من الحق ، بل من حب الانتقام . وحضرت القهوة فقممت من حضرتها مأثداً . وتلفت ساعة خروجي

من النظرة ، فرأيت العجوز تومئ الى أن اطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفي ، فجعلت أفكر في أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت الى النظرة فوجدت أبى وحده ، فسألته عن جلية الأمر ، فأخبرني أن صديقنا دهش لهذه الخطبة غير المنتظرة ، وطلب اليه أن يمهله حتى يدخل الى أهله فيشاورهم في الأمر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعده أنه أول ما دخل سأل زوجته :

— هل جاءت البنت ؟

— نعم إنها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأنادى بها اليك ؟

— إن جارنا يخطبها لابنه . فما رأيك ؟ وهل لك علم برأيها في ذلك ؟

— ومن لى بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة ، دعني أسألك .

فصاح الرجل بغتة :

— يا فاجرة ! من لك بأن تعلمي ! أو ما عرفت ما بينهما وكيف يلتقيان ؟

— كيف يلتقيان ! هدىء من روعك يا صاح ! إن ابنتك من يوم احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا ، فأني لك بتصيد أخبار كالتى ترميها بها ؟ !

— كفى كذبا يا خبيثة وأدخلي البنت على لتوها وإلا فاني قاتلها . لن أرضى الخنا تحت سقف يظله الشرف ! أين هي ؟

فظهرت على الأم سياء الجد وقالت بلمهجة الحازم القدير :

إن لم تهديء من حديثك فلن تراها ، اقلنى إن شئت لىكنى لن أدعها تدخل على أب طائش الحلم يرمى فتاة طاهرة بأقبح سبة من غير سبب . فأما إن راجعك صوابك وأعظيت على نفسك موثقاً أن تقابلها

ببشر الأب الرزين ، فستراها بين يديك قبل أن يرد إليك طرفك .
فأطرق الرجل ثم خرجت الأم ، ولم تك إلا برهة حتى عادت تصحبها
البنات وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها حممر .
فلما رآها أبوها كذلك وجم هنيهة احتقر أثناءها الدم في رأسه ثم
سألها :

— إن جارنا يخطبك لابنه فماذا تقولين ؟

خففت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

الأمر لك وما كان لبنات أن تراجع أباهما أو ترد عليه قولا ...
ثم أشارت لابتها أن تخرج . فلما قاربت الباب ناداها أبوها
مغضباً :

— لعلك مرناحة لهذا الخبر ! ألا فاعلمى أن الطلاق يلزمنى ثلاثاً
إن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة ! قومي من وجهى .
أخرجاً ، أخرجاً . واعلم أنى رقيب عتيد .
ورجع الرجل من حرمة إلينا وهو فى هياجه ، ولبث زمناً سكنت
عنه الغضب فيه ثم قال لأبى :

— إسمع يا أخى . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا كنت
لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تعلم أنى حجزت ابنتى بسبب ابنك
الذى لا أسميه كيلاً أغضبك . ولقد حلفت اليوم بالطلاق ثلاثاً
ألا أزوجه منى ، ولن أحنث فى يمينى . وما لك عندى من الحب
والاحترام لن يؤثر فىهما أمر تافه كهذا . لكن بحق هذا الحب الذى
بيننا إلا عقلت ابنك عما قد يمس بيتى وما يقيم بيننا ثأراً لا تمحوه يد
الزمان . وفتيات بلدنا كثرات ، وبينهن من يفضلن ابنتى . فما عليك

إلا تزويجه من إحداهن . وفي ذلك

لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتني حمى صحت معها :

— ألا لعننى الله إن لم أتزوجها ! وتعمساً لك أيها الشيخ وللزمان !
وخرجت هائماً على وجهى قد تولانى اليأس فأضل صوابى وضيق العيش
أماحى ، وجعلنى أرى كل ما فى الحياة عدوا لى ، وخيل إلى لحظتئذ
أن لا بد لى من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتى واتزاعها
من بين أهلها والفرار بها لنقيم معاً دائماً وإلى الأبد .

وكانت ليلة قرة ، لكن السماء كانت صفواً ، وكان البدر المتألق يبعث
فى لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاء بضياء رقيق مطمئن . لذلك
خشيت ، بعدما مكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ عزمى
أول الليل ، أن يحس الناس بى ، وأن يكون الإخفاق نصيبى . فعرجت
إلى المسجد ومكثت فيه ردحاً من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع .
وإنى لكذلك إذ مر بنحطرى أن مباغثة الفتاة على غرة ومن دون
علمها بالذى أنوى ، ربما أدخل الجزع إلى نفسها وجعلها تعترض
ما أريد . لذلك رأيت أن أُلجأ إلى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر
الأمر معها . وألفيتها عند حجاز الدار مكتئبة بائسة . فسألتها عما أصابها
وفاتحتها فيما اعتزمته ومنيتها كبار الأمانى . فما زادت جواباً على ذلك كله
أن قالت :

— قضى الأمر يا مولاي ؛ فقد أقفل بابهم فى وجهى ، فلا أستطيع
أن أدخله بعد اليوم .

قلت : واليوم ، الآن ، هل فى طاقتك الوصول إليها ولو عن
طريق الشياطين ؟

فأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت: لاسبيل! فلعنيتها وخرجت قاصداً بيت محبوبتي لأنتم فعلتي ولوكلفني ذلك ما كلفني. فلما كنت إزاء بيتنا بصر بي أبي فناداني إليه، فأفقت حين سمعت صوته وتوجهت نحوه، فجعل يطمئنني بكلمات رفاق، وصحبنى حتى أمسى الليل وغلقت دوني الأبواب. لكن ذلك لم يزدني إلا عزماً. فخرجت بعد هجمة الناس وتسلفت جدار جارنا ووقفت إلى جانب الغرف أسمع. فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت إلى غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب، فانتبهت الأم وفتحت. وإذا تبينت وجهي في ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة، ثم أقبلت إلى ثانية وأدخلتني إلى الغرفة وأوصدتها، وقالت بصوت تخنقه العبرات:

— بربك يا بني ارحم أسرة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت بها إلى حضيض العار. بربك يا بني! بحق هاته النائمة المهدودة التي نهكها التعب. بحق أنا وبحق الجوار لا تبجن عليها، لا تقتل أباهما المسكين. ابني تحبك ولكن نفذ القضاء. إرجع وأنت واجد من النسيان خير تعلقة، وفي غيرها من تعدلها مرات. ارجع يا بني!

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتاً صليداً منتظراً أن تفرغ من خرافتها كي أحتمل فريستي وأذهب بها. وفيما أنا في انتظارها استيقظت الفتاة وحدقت إلى. فلما تبينتني على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدتها وأقبلت إلى وتعلقت بعنقي وجعلت تبكي، ثم قالت:

— الوداع...

— كلا! اذهبي معي الآن إلى حيث أريد.

فارتجفت الفتاة ثم تمتعت :

— رحماك حبيبي بأُمى وأبى ، ورحمة بي أنا أيضاً . الوداع الآن ،
ولكننا سنلتقي في المستقبل . بالله إلا ما رجعت أدراجك ، وبحق هذه
الزيارة لن يكون لغيرك في قلبي مكان ما حيت
وأغلظت في الأيمان وألحت وبكت ، فأخذت عبراتها عزيزي
وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجي .

* * *

بعد هذا الحادث بأشهر زوجها أبوها من أحد أعيان القرى
المجاورة . وكانت ليلة عرسها ليلة مأتم عندي . لزمت البيت وانفردت
في غرفة من الغرف وذرفت الدمع وتولاني القنوط . وفي الصباح رأيتهما
خارجة من القرية في هودج وقد أحاط بهما رجالها ورجال العروس
وساروا جميعاً وفي يد كل منهم نبوته ومع البعض طبنجات سمعت
ظلمات منها تذهب في الهواء . فلما ابتعدوا رجعت إلى نفسي أفكر
والحزن يفيض عني . وإني لكذلك إذ جاء أبي وصديق له . فلما رأيا
ما أنا فيه من الهم أخذوا يرفهان عني ، وأكد لي أبي أنه سيزوجني
من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتى ونسيت ما كان بيننا من ماض
طويل سعيد .

وصدق أبي وعده . فعقد لي بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر
البلاد المحيطة بقريتنا . وأقيم لي ولها عرس نادر المثل . فلما حضرت
زوجي عندي رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى
فيها نفسي ، وأجعل منها موضع حي ، وأسدل على ما قبل يومها عندي
حجاباً كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لي فيه سعادة

وهناءة؛ فما مضى انقضى وليس إلى إحيائه أو استعادته سبيل . وعملت لذلك بإخلاص وجد ، ووجدت من زوجى نعم المعين . وكان أكبر ما وجهت إليه عنايتى أن أخلق بيننا فى وقت قصير ماضياً طويلاً . فأكثرنا من التروض والأسفار ، وواصلنا ليلنا بنهارنا لنظفر بأ أكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة ؛ فسرعان ما فهمت مواضع الضعف منى ، فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى ، وجعلتنى أعتقد أنى سأجد فيها ما ينسينى كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمانت هى فيها واطمان كثير من أهلى إلى اندثار كل أثر لمحبوبتى الأولى من نفسى وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبى . والحق أنه اشتمل نفسى هدوء صادق ، وذهب عنى ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلابيبى إلى ما بعد زواجى ، وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى . وإنا لسلك ذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معا إلى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر ، أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أنى محبوبتى وزوجها . وبقي الناس فى هرج الوداع ومرجه أياماً . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافران ومعهما جمع غير قليل ، فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . ألا سقيا لك يا ليلة بروز أبى للحج ! لقد جررت على مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها كاهلى ، لكنك توجتها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج الى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا أطوف والناس فى زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة ، فوقفت مبهوتاً أحرق إليها . ورائتى

هي أيضا فبهتت . ثم إذا قوة القاهرة دفعت كل واحد منا نحو صاحبه ،
فتقاربنا حتى وضعت يدها في يدي من غير أن ينبس أحد منا ببنت
شفة . في تلك اللحظة الرهيبة الرغبة ، لحظة الالتيا بعد طول الفراق ،
في تلك اللحظة الجميلة المهوية خيم علينا الصمت وتولانا الدهول ...
وبعد زمن خيل إلىّ فيه أن وجودي تلاشى فلم يبق لي من الحياة إلا
هذه اليد المسكة بيدي ، سمعت ملكي تتمم وكأنما خنقتها العبرة :
— هكذا تنسانا !

لو أن الأرض انشقت والسماء هدت والجبال دكت ، لكان ذلك
أهون وقعا علىّ من هذه الكلمة . نعم نسيتهما أنا الشقي . فم عساي
أ كفر عن ذنبي ؟ وأي جواب أرد به عليها ؟ وبعد لأي قلت :
— غفرانك صاحبتي ! لقد أحييت من نفسي لوعة لا بد لي بعدها
من الظفر بك أو الموت في سبيلك . وموعدا غداً بعد عودتي من
السفر حيث كنا نلتقي في رعاية العجوز .
وتتاركنا ...

تتاركنا وقد نفر من كلومي ما كان قد سكن ، وجشأت نفسي
وجاشت وثار وجودي كله ، وصرت لا أعني شيئاً مما يدور حولي ولا
أبصر إلا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغة ملؤها الهم ، وقابلت زوجي
لبعض شأنى ، فما وقع نظري عليها حتى رأيت الثعبان الذي نفث سمه في
حياتي ودفنني إلى ارتكاب جريمتي .

ولم يتسع الوقت لأصعب عليها جام غضبي ، فاختطففت من يدها
ماقدمت وأسرعت إلى الباب ، فتبعتنى تريد أن تعرف ما بي ، فزجرتها
بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها مني :

— ارجعي يا عينة أو أنت طالق !

رجعت هي ، وسافرت أنا الى السويس ، وأنزلت أبى الباخرة وعدت قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن يعلم أحد بعودتى . وقطعت الطريق بين المحطة وقريننا راجلا سالكا أقرب الطرق رغم وعورتها ، وبمعت موعدى ، فاذا حبيبى تنتظرنى . فلما رأتنى بادرت بالسؤال :

— كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما أحب وتحب !

نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟ كيف أنا ؟ . . أواه يا صاحبي لو تعلم ! لقد قضيت أيامى منذ تزوجت وأنا أقطع نفسى حشرات من أجلك ... ولكن ! ... مالك أنت وهذا ! ... متعك الله بزواجك ومد فى أيام سعادتك ... والله أيام تقضت فى هذا المكان حين كان البدر يغمرنا فى سابغ لفته ، وحين كان يحدونا الميل والعطف الى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر يا صاح تلك الأيام ؟ أتذكر عهدونا وموائقنا ؟ أتذكر محبى العجوز تنبها الى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ؟ أتذكر مجيئك الى أبى تخطبني ؟ وهل تذكر تسورك دارنا وتعريضك نفسك وإبى للخطر ؟ ثم هل تذكر آخر وعدى إياك أن لن يكون لغيرك فى قلبى مكان ما حييت ؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعارا . أقسم بحياتك أنت ما حنثت فى الوعد ، ولن أستطيع أن أحنث فيه ... لكن ... كل شىء يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمى أنا أيضا . إنه غفور رحيم .

... وانهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت أمام نفسى ،

وتضاءل في عيني قدرى ، ورأيتني مجرماً بأئسا شقياً . هذه السيدة أُمى تبلغ من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ماتذكره الساعة حجاباً كثيفاً ، وأنسى موافيق وعهودى ، وأنسى قلبى وروحى ، وأنسى كل ما فى الحياة من جميل وعظيم ، وأرضى ذلك العيش السخيف الذى ألبسونى ! كلا كلا ! لا بد من استعادة هذا الماضى ولو نحيت بالحياة فى هذا السبيل .

وصح ذلك العزم منى ، فهدأت جأش صاحبى وقلت لها :
— ما نسياناً لعهد سلف ولا فتورا فى حب يملأ وجودى حصل ما تقولين . لكنى خشيت أن أنقص عليك عيشاً ربما وجدت فيه الطمأنينة . والآن أفتعدينى إن أنا طلقتك من زوجك أن تكونى لى زوجاً ؟

قالت وما تزال العبرة تخنفها وعيناها مغرورقتان بالدمع :

— وهل رأيتنى يا صديق رجوت فى الحياة غير هذا ؟

وقضينا ما بقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكري والعتاب والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسجبت هى الى الخدع الذى أُعد لها ، وقت أنا إلى المسجد فنلت فيه إغفاءة ما كان أحوجنى إليها بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الإحساسات وأقساها ، وبعد سفر يوم طويل . فلما خلوت إلى نفسى ساعة الضحى أخذت أفكر فى الوسيلة لتنفيذ ما اعترمت .

عملت جهدى ، وأفنيت كل وسائل السلم لإقناع زوجها بتسريحها ؛ فكنت كلما ازددت إصراراً ازداد هو ضنا بها وإمساكاً عليها . ثم أصبح الأمر بيننا عناداً ، وصار هو يرى عملى هذا جريمة أنقص بها

عيشه وأفسد عليه حياته وأجنى بها على الفضيلة والمروءة ، وشاركه في رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم على أن خاطبني مواجهة بأن ما أجتريه أكبر الكبائر .

لم يكن ذلك ليغير من رأيي ولا ليرجعني عن عزمي ، بل جاءت محبوبتي الى بيت أهلها بإشارة مني ، وتبدلت وسائل السلم مع زوجها ووسائل وعيد وتهديد . ولقد سئلت لى يوما نفسها أن أدس إليه من يقضى عليه ، وكنت مقدما على هذا لولا أن وقفت هي دونه مخافة مافيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد .

وإنما لى شغل بتدبير أمرنا إذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التى تقل أبويننا عائدة من الحجاز ، فانقلب الفرح مآتما ، وارتدت النساء ثياب الحداد ، وأصابنا الفاجعة موضع الألم من نفسى ونفس صاحبتى ، وصارت تجمعنى وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المشترك .

وانتهى المآثم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزوج صاحبتى ، وذهبت أفكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، وانهيت إلى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها . وكتم تهلت هي حين عرضت عليها هذا الرأى من غير أن تفكر فيما تحتاج اليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما نريد .

على أن هذه المجهودات لم تكن شيئاً أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كي يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال إنسان . فلم أترك شاهد زور إلا أثبت به ، ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ، ولا قاضياً إلا وصلت اليه . ولقد كاد اللال من

هذه الجهود يصل بي إلى اليأس مرات . فلستم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن السكاتب رأى أن ما وصله غير كاف فأراد المزيد ! ولستم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة إلى رد طلبه ! وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود ... ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى إلى الانتصار لهان علىَّ أن أترك كل شيء .

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق ؛ فطرت فرحاً ، وحملت الخبر إلى صاحبتى وعاتقتها عناقاً طويلاً . ولبثنا يومين ثمّلين بلذة النصر فى هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الأيام دس إلى نفوسنا ما شغل بالنا . ذلك أن المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلاً عند الله ؟

هنالك ذهبت إلى زوجها وعرضت عليه جلية الأمر ، وقلت له : — يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسراً . لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزراً . وأنت تعلم أننا لم يدفعنا إلى ما عملنا الوقعة بك أو المس بشرفك ، وإنما دفعنا إليه ما لا قبل لنا بدفعه . فهل لك فى مشوبة من الله فتتطرق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضمائرنا ؟ فأطرق الرجل طويلاً يفكر ثم قال :

— لقد والله حملتاني هـا طويلاً . أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق ...

فشكرت له منته ، ورجعت إلى أهلى وبلغت صاحبتى الخبر ، ثم ناديت زوجى وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون ، وقلت : — وإنى لأخشى بعد زواجى ألا أعدل بينكما ، فإن شئت راضية سرحتك سراها جميلاً .

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلا جاء فيه الذين كانوا يعيرون عملي يهثونني ، وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق . ورزقت من زوجتي أبناء ثلاثة : بنتا وولدين . وهؤلاء الأبناء هم عندي زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذي أنفقه أبوهم السعيد بهم . أفتعجب بعد ذلك مما رأيت من ذهولي حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟ !

إلى هنا انتهت قصة صاحبي . وهي قصة ألفت للهوى بزمام الحكم حتى في دور القضاء . وقد غادرت صاحبي بعدها فغادرت رجلا من السعداء القليلين الذين رأيت في حياتي . غادرته وأنا أغبطه على ما تمتعه الله به من نعمة سابعة وهناء مقيم ...

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معايشة أهل بلده . وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة في مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . وارتسمت على جبينه الذي كان نقياً إلا من آثار الورع والتقى تجاعيد الهم والألم . أما نظراته التي كانت مملوءة بالإيمان وتنم عن راحة الضمير وسكينة القلب ، فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تعاسة قلقة لا تدري أين تستقر ، وغارت عيناه وغاض لونه وبدأ عليه نحول عصبي نكثره لنفسه ولكل من عرفه . مع ذلك كانت حركاته أكثر بطئاً ، وكأما أمسك الهم الذي أثقله بكل عصب من أعصابه ، أو كأما شل القلق الذي تولاه سلطان إرادته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل .

طراً هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن في أوليات الشتاء ، وطرأ عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمة ، وبعد أن كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى ولي من أولياء الله الصالحين . ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل في كمال الخلق وصدق الإيمان وسمو النفس . وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجراً . فكان يعظهم بعد كل صلاة ويعلمهم ويفقههم في دينهم . وكان سمح النفس سريعاً إلى المواساة ، يشاطر الناس سرأهم وصرأهم ، ويفيض عليهم من إيمانه بلسان لجراحات آلامهم وأحزانهم . وكان نساء القرية يجدن في سلطانه على أزواجهن ما يحمين من عسف هؤلاء

الأزواج وما يقف حائلاً دون التلاعب بأيمان الطلاق ، وكان خاصة أهل القرية وعامتهم في احترامه وتبجيله سواء . بل لقد كان كثيرون من أكابر القرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضاً عليهم كلما زاروا واحداً من أعيان بلده . وكذلك كانت حياته وكان عيشه راضين عنده مرضيين عند الله والناس .

وقد ظل متمتعاً بطمأنينة الإيمان منذ نشأته ، فلم يثقله من الهم إلا ما كان منذ سنوات مت حين ماتت زوجته تاركة وحيدتها فاطمة في العاشرة من عمرها . فقد كان يوم ماتت هذه الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس خجعة وأهولهم جزءاً ، جمدت الدموع في عينه ، ودب المشيب إلى فوديه ، وتجاوبت في قلبه كل أصداء الحزن والألم . ويومئذ سارع الناس من أهل بلده ومن كل البلاد المجاورة إلى تعزيته . ومن اليسير على قلب يملؤه الإيمان أن يتهمزى . فهو على شدة جزعه لوقع المصاب لم يلبث أن ذكر أن لله في كل أمر حكمة ، وأن تلا قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . عند ذلك قشعت حرارة الإيمان سحب الهم ، وحمد الشيخ ربه إذ أسبغ عليه نعمة التقى واستبق له فاطمة كي يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما في نفسه من حنان وعطف وحب أبوى .

وبعد انقضاء المآتم بقيت في الدار معه أخت له تحبه وتبجله . فلما انقضى الأسبوع الأول فاتحته في أمر زواجه من جديد ، وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أى مجهود لإقناعه بضرورة الإسراع إلى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه بين الناس ، ويدعوه إليه قلبه المشوق ولا شك إلى ابن له يخلفه ويخلده .

ثم إن النساء جميعاً مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطبق عليهن صبراً أو يستطيع عنهن بعداً . لذلك كانت دهشة أخت الشيخ عظيمة حين بدا منه التردد والإحجام ، وكانت بعد ذلك أشد دهشة حين رآته التزم عيش العزوبة قانعاً بهذه البنت التي أبقاها الله له . لكن حبها أخاها وتبجيلها له منعها من الإمعان في الإلحاح بعد أن أمرها بالكف عن الكلام في أمر زواجه ، وجعلها تدرك ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وتربية فئاته .

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة . ومع صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقة الأنوثة ودمايتها مع شيء من الأنفة في غير كبرياء . ولم يبعث بها أبوها إلى المدرسة ولا إلى الكتاب أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار ، وأن حكم الدار حكماً صالحاً في غير حاجة إلى درس شيء غير ما تتوارثه أجيال النساء خلفاً عن سلف ، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من معارف كثيراً ما تجنى على الخلق وعلى الفضيلة التي يجب أن تكون زينة المرأة وحليتها . على أن كثرة معاشرة البنت لأبيها وسماعها ما يفيض من علمه في حديثه العادي فتقا ذكائها لكثير مما لا يجوز به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياف والناس الطيبين فيها ، فكانت تعرف شيئاً عن المدن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها ومن الدوات الذين يزورون هؤلاء المشايخ ويؤدون لهم فرائض الإجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليها ليشعرها بماله ولها من سمو المكانة ورفيع القدر ، وليدخل بذلك إلى نفسها معاني الإباء والكرامة فتشرف أخلاقها وتغظم نفسها ،

وتتابعت الأشهر والسنون ، وكل سنة تمر تزايد فاطمة جمالاً وتزيد أباهما تعلقاً بها . وكانت الفتاة محبة لجمالها مشغوفة به أى شغف . لذلك جعلت من امرأة خلفتها أمها خير صديق لها . فكانت لا تمل التحديق إليها بصفحة هذا الجبين النقي المصقول ، فوق حواجب نونية واسعة ، قومت على عيون دجاء مملوء بريقهما الندى حياة وأحلاماً ، وبأنف رقيق يستوى والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلاً ليرتد عن وجارى منخرين اتسعا لشميم كل ما فى الحياة مما يحملهما إليه الحسن والهوى ، ليفصل بين خدين ممتلئين فى استدارة جميلة ، تعلوها حمرة تنطق بما فى الشباب من صحة ورغبة ، ثم تذوب فى سمة قحية جذابة . وكان أشد إعجاب فاطمة بهذا الفم الذى تراه فى المرأة كأنه وردة لم تبرز من كهما الأخضر إلا بمقدار ما تنبعث القبلية من بين هذه الشفاه ، فتبتسم له مسرورة به راضية عنه ، فتتم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض ، وعن ثغر تجرى مع سلافة ريقه كل ماتوحيه صنو فاطمة من أحلام وآمال ورغبات .

على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجه صاحبها المطل من خلال المرأة المحبوبة ، فتزداد به شغفاً وإعجاباً . أما قوامها فكان لينا غضا كأنه قوام ناعمة نؤوم الضحى . ارتفع ثوبها فوق صدر ناهد فى غير إغراق ، وأخذ بتلابيب خصر ريان فى غير بطنة . وكانت ساقاها وقدماهما كمال هذا الجمال الشاب المتطلع للحياة بنظرات الأمل الجاهل كل ما فى الحياة من غدر ومن ألم .

وكان أبوها ضنيناً بها على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه ، قفل أن كان يسمح لها بمغادرة الدار إلا تحت جناح الظلام وفى ستر الليل .

لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ما جعله يتسامح في ذهاب فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمام لها وأخوال هم أكابر أهل البلد والقائمون فيها بالعمدية والمأذونية . وكان يسره أحياناً أن يعرف منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لا يتاح له الوقوف عليه وهو في عزوبته وفي تقاه .

وكان لها ببعض أقاربها في البيت الكبير صداقة نشأت منذ الصغر . وخشى أبوها عواقب هذه الصداقة ، فأسر إلى أخته أن تحرم عليها ملاقة أحد من الشبان . وكأن ما كان من فرط حذر عمه فاطمة قد نبه فيها لأول ما كملت لها حياة المرأة معاني نسوية ما كانت لتتنبه بهذه السرعة . وثار وجود الفتاة ثورة لم يفكر عقلها في كبجها إذ كانت ثورة الجمال المهان . فكانت لا تأبى تحيات أكابر أقاربها ممن سمح لها بالجلوس إليهم والتحدث معهم ، كما كانت لا تضن بابتسامة عذبة على ذوى الود منهم . وسحر بجمالها غير واحد كان يجد فيه قدس إعجاب وعبادة . وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورون تمليقاً لها وتديلاً . ولكل ثورة نفسية لا تجد من سلطان العقل ما يكبح جماحها انفجار لا وسيلة لمقاومته إلا إذا استطعت مقاومة انفجار الرجل الثائر جوفه ببخار ما تفتأ النار تزيده ثوراناً . لذلك لم تطل مقاومتها ابن عم لأبيها له مالابن عمه من مظاهر التقى ، وللناس به من الثقة أن كانوا يأمنونه على أموالهم وأعراضهم .

ومرت أسابيع بدا فيها على صحة الفتاة من التغير ما أدخل الريبة إلى نفس الشيخ حسن ، فحاول بادئ الأمر أن يقنع نفسه بأن ما بابنته من علة لا صلة له بعفافها . لكن للنساء في القرى السنأ طوالاً . وما هي

إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية رجلا ونساء .
والهمس إذا عم صار حسيساً ، وصار له صوت وكيان . وأحس الأب
البائس هذا الصوت ، بل رآه رأى العين في نظرات كانت توجه له وفي
بعضها من الإشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه ما هو أشد قسوة من نظرات
الحقد والكرهية . لذلك انقطع عن معايشرة الناس وعن الذهاب إلى
المسجد ، وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم والألم ، واضطربت نظراته ،
وغارت عيناه وغاض لونه وضعفت حركته ، فكأنما شل الهم أعصابه
وأخذ سلطان حركته ، حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل .

وكان أول ما قام بنفس الشيخ حسن ، حين هزم اليقين منها كل
هواجس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية ، وأراه رأى العين كل
عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها القمحية المتوردة تجري فيه
لذائذ الإثم والعار ، أن يذهب إليها ويقتحم الباب عليها ويقتلها ويدفن
معها عارها وإثمها . ولم يك ذلك منه عن روية أو عن تفكير . بل إن
سلطان الوسط ، وفطرة الجماعة التي يعيش بينها وقد تكونت على الزمان
من عقائد وعادات توارثتها أجيال بعد أجيال ، هما اللذان دفعاه إلى
ما أراد القيام به . لذلك لم يكن في حاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر
فيه نتائج فعلته . بل غلا الدم في عروقه وثار ثأر نفسه وملكته فطرة
القضاء على هذه الأثيمة المجرمة ، وتم ذلك كله في أقل من لمح البصر .
وهم بالتنفيذ ، لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة
عاقبت حركته ، تلك عاطفة الأبوة التي جاش بها قلبه وهزت أعماق
وجوده . أترأه يقتل ابنته الوحيدة التي وقف عليها حياته ووقف على
مساعاتها وجوده ؟ ابنته الوحيدة الباقية ذكرا لزوجته المحبوبة ولأيام

سعادته وهناءته ؟ ولو قتلها أترأه يظهر من إثمها ومن عارها ؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا إليه نظرات الإشفاق القاتل والحقد البغيض ؟

وقف عند الباب برهة زلزلت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة ، ثم عاد إلى مخدعه وارتقى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكأً بعد عودته من الصلاة وحين تسبيحه ، وانحط مهدود القوى عاجزاً عن التفكير وعن الإرادة لا يرى شيئاً مما أمامه ولا يدرك الوقت ومره ولا الأشباح التي تبدو من خلال نافذته . وظل في ذهوله حتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغروب . ثم دخلت عليه أخته تسأله : ألا تذهب إلى المسجد لصلاة فرضي المغرب والعشاء ! وكأما أزعجه صوتها من حلمه الأليم ، فما يدري أيهما أشد لنفسه وخزا : أهذا الحلم المبهم الذي نهكه والذي نسي فيه الحياة ونسى الألم ، أم هذا الصوت الذي نهبه إلى الحياة وآلامها وأعاد إلى نفسه ذكر أخته وذكر ابنته وذكر عاره الذي لا يمحي !

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباة وعمامته ومركوبه ، وخرج قاصداً المسجد . لكنه ما لبث حين اقترب منه أن شعر كأن شيئاً يصده عنه . فقد خيل إليه أنه إذا تخطى بابه فسيحججه من فيه جميعاً بنظرات الإشفاق أو الازدراء أو الحقد ، وستبدو هذه المعاني في حلق تلك العيون المتجهة نحوه واخمة ناطقة تخترم نياط قلبه وتنفذ إلى أعماق نفسه . ففكر راجعاً كأنما يريد العود لداره . لكنه عرج بدافع من وجدانه لا شعور له به ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير به بين

المزارع . وهل في الدار إلا الإثم والعار ؟ وهل الدار أقل إيلاًماً له من نظرات المصلين ؟ وحملته قدماه إلى شاطئ غدير قامت حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضر ثوباً قائماً لا يخلو من بهجة ، فانعطف والشاطئ حتى بلغ مصلى بعيداً عن السكة العامرة بالناس والدواب . وهناك ألقى بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض المصلى ، وعاد إلى مثل ما كان فيه في الدار من ذهول .

وظل في ذهوله ، حتى إذا اقترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض ربه . وليس من كان مثله في ملك نفسه بل هو في ملك دينه وإيمانه . وهل أصابه إلا ما كتب الله له ! وهل كان ما حل به إلا من عند الله ، والله الشكر والحمد على السراء والضراء ! فقام فتوضأ وصلى المغرب ثم صلى العشاء ، ثم رفع أكف الضراعة إلى الله أن يهديه سواء السبيل . عاد الرجل إلى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس ونظراتهم وإن لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام . وذهب إلى غرفته وحاول أن ينام . لكن الهم والنوم لا يلتقيان في نفس قبل أن يذبيها الهم ويضئها الألم . فبات يتقلب في مضجعه إلى ما قبيل الفجر ، إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام ؛ لكنها كانت مع ذلك مسعدة أن جددت له بعض قواه ، ومكنته من القيام بعدها مبكراً ليؤدي لله فرض الصبح ويستغفر من عظيم ذنبه .

وتعاقبت الأيام بعد ذلك والرجل يزداد كل يوم نحولاً وأعصابه تزداد ضعفاً . وقل أن كان يفكر ، بل كانت نفسه ميداناً لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة . فطرة الجماعة تناديه أن لا سبيل للخلاص من العار إلا بالخلاص من ابنته ، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتفاعه ليظهر بالدم المراق دنس العار ورجسه .

وفي الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تغلب عنده على فطرة الجماعة ، وكانت تعاوده هزات حنان وإشفاق على نفسه ، وكان لا يرى جرماً في التحدث إلى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نقمة الله ولتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف ، في عرض ابنته الوحيدة التي كان يرجوها ملك طهر وعفاف ، فأبى القدر القاسي إلا أن تكون شيطان رجس وفسوق .

وجعل المسكين يفتش في ماضى حياته عما اجترح من إثم ومعصية ؛ إذ من المحال أن يقضى عليه أعدل الحاكمين بغياً بتلك النكبة النكراء . ولم يززع من إيمانه أن كان يرى ماضيه طاهراً تقياً ، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمانة بالسوء دفعته يوماً إلى كبيرة لم يظن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيراً . ولم يدر بخلده لحظة أن رعى القدر الطحون تدور فتختطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وما جنوا إثمًا ، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائكة حب ورحمة ، وتيتم أبناء من آباء وأمهات كانوا مصدر بر وعطف وحنان لا يفتنى . وهي في دورتها وفي طعنها هذه الدرات الإنسانية التافهة في حياة الوجود العظيم ليست أكثر عناية بها منها بحجر أو بنبات أو بحشرة كالنملة أو كالدودة شأنا . وكيف يدور ذلك بخلده وهو يقيس عدالة السماء التي يؤمن بها بعدالة الأرض التي يعيش عليها ، ويتوهم أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الأرض من عقائد وعادات ومن أوهام وترهات ومن أباطيل وخرافات .

على أن هذه الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها والتي كانت تغلب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة في نفسه ، لم توجه فكره لحظة نحو

ابنته وما قد يكون لها من عذر في إتيان ما أتت . بل صارت أبوته وصار إشفاقه سبباً في عطفه على نفسه ورثائه لحاله . فاذا تخيل فاطمة ارتسعت أمامه صورتها ساعة ثورة معاني الحُصْب والتخليد في جسمها الشاب البديع . هنالك يغيب تفكيره وتتوارى عاطفته ، وتلبسه عقائد الجماعة فتعلاً وجوده وتتحكم فيه وتجعل منه شخصاً مفترساً يريد أن ينقض على هذا الإثم الذي خرجت به ابنته على شرائع الجماعة ونظمها ، والذي يوشك أن يثمر نغلاً لا تعرف الجمعية له أباً ولا تطبق عليه قوانين الحضانة والنفقة والميراث . ثم يزيد في حيوانيته وفي افتراسه هذه اللئام بل الألوف من العيون التي امتلأ بها القضاء حوله ، والتي تنظر إليه نظرها إلى أبي فاجرة لطمت وجه الطهر والكرامة ، وأحلت الشهوات الدنيئة منها محل العفاف والشرف .

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولاً وأعصابه ضعفاً وفكره ذهولاً ، وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فراراً من هذا العار الذي لحقه ، ولكي لا يقتل ابنته فيأثم في حق بارئه بأن يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق . لكن هذه الفكرة انهزمت كما انهزم غيرها من الأفكار . وكان الرجل كلما زاده الهم نحولاً صار أضعف تفكيراً وأكثر خضوعاً لفطرة الجماعة وامثالاً لها في خلايا ذهنه وفي شعاب قلبه وفي ثنايا نفسه ودخائل فؤاده . عند ذلك بدأت هذه الإرادة التي شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع الانفعال وحده ، كما تتحرك إرادة السبع والنمر وكل حيوان مفترس . وبدأت شهوات الرجل تتنبه للطعام وللشراب تقوى فيها هذه الحيوانية التي أخضعت كل قوى الإنسان وحسه وشعوره ، وتحكمت فيه فكرة

ثابتة كان يؤمن بها ويخضع لها ، تلك أن لا سبيل لمحو العار إلا بمحو مصدره . و خلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقاً وسلحت الرجل بكل وسائل تنفيذها . فهذه البنت الفاجرة لا يمكن أن تكون ابنته وهو التقي الورع القوى الإيمان بالله البعيد عن مواتاة الرذيلة والنقص . ومن يدري ! فلعل أمها خاتته في غفلة منه ، فكانت الأثيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والإثم . بل لاشك عنده في هذه الخيانة التي أورثتها الأم ابنتها ؛ فما كان الله ليقصص منها فتموت شابة في قوتها وفي نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية في حق الله . لكن البنت تنسب إليه وقد أسبغ عليها من نعمة العيش ما كفرت به حين أسلمت نفسها لهذا الإثم ، فكان من كفرها ما جعل الناس ينظرون إليه هذه النظرات القاتلة .

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة نقية ، فذلك مما يزيد في جريمة فاطمة ولا يخفف منها . هي زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقا .

وإذا كانت القوانين التي سنّها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ في حماة الشهوات وهم من القصاص بمنجاة ، فما كان لمؤمن بالله وشريعته أن يدع الآثام التي حرم الله ترتكب وهو عنها لاه ولها مطمئن . أو لم يقل الرسول عليه السلام : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وهذه البنت قد أصبحت منكرا يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه في أعماق نفسه ، فوجب أن يزيله بيده ، ويومئذ يكون قد أدى لله وللفضيلة وللأبوة حقا مقدساً . ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يزدرونه اليوم فيرد إليهم ازدراءهم ، ثم هم يكونون بورعه وتقواه أشد إيماناً .

وشحذت فكرته الثابتة عزمه ، فلم يبق إلا أن ينفذه فيزيل هذا

المنكر ، ويرضى بذلك إيمانه الثابت ، ويرضى فطرة الجماعة التي تحكمت فيه ، وسواء لديه بعد ذلك ما يكون من حكم شرائع الناس عليه . ولم يرض خياله المفترس إلا أن يذبح ابنته ذبحاً ، ويشوه وجه البغي تشويهاً ويقطع أوصالها إرباً إرباً ، فلا يبقى بعد ذلك عالقاً بنفسه من إثمها ولا من عارها باقية . وانتظر الشيخ ، حتى إذا كان يوم السوق ذهب بنفسه إلى أحد باعة السكاكين ، فابتاع سكيناً مرهف الحاد لامع النصل متين القبضة وحمله إلى داره ، وجلس بقية يومه ينظر إليه ويصور لنفسه الدم يقطر منه ، فيبسم لهذه الصورة وتبرق عيناه بريقاً شديداً ، ثم يعترية شيء كأنه المس أو الدهول . فإذا عاد إلى نفسه استعاد منظر الجريمة التي قدر عليه أن يرتكب ، كما قدر على ابنته من قبل أن تخضع لسلطان الهوى ، فاغتبط بإثمه اغتباطها يوم سقطتها بإثمها ، وشعر بلذة تملأ حواسه حتى لكان منظر الدم ورائحته وطعمه وصوت تفجر القلب به كان يملأ عينه وأنفه وفمه وأذنه بالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأرخب الليل سدوله ، وسكن كل من في القرية إلى أهله ، وذهبت فاطمة إلى مضجعها وبها من علة الحمل وسقم الهم لما كانت تسمع من عمتها من تقريع وتأنيب مذهب بحمرة خدها وإن لم يذهب بجهاها ولا بابتسامة خالدة بديعة كانت تطوق ثغرها العذب الساحر . وفيما هي تحتمى بالنوم من علتها وهمها قام أبوها من غرفته ويده ذلك النصل المرهف وسار إلى مضجعها بخطوات ثابتة . حتى إذا كان عندها ونظر إلى وجهها شعر كأن قلبه يريد أن يضطرب بنبأ من حنان ، فرفع يداً لم تخل رغم ثبات جنانه من بعض الرعدة ، ثم أغمد النصل بكل قوته في

قلب الفتاة التي فتحت عينها تحت أثر الطعنة ، فرأت أباه تلمع عيناه بالشرر ويرتجف جسمه وتتمتع شفاته في صوت خفي ولكن بحرارة وقوة : الحمد لله على قضائه !

وأرادت أن تنصل أو تدافع عن نفسها ، ولكنه وضع يده اليسرى على فمها واستل النصل من القلب فانفجر الدم حاراً قوياً كله الشباب والحياة . وأحس الرجل أن رشاشاً منه يصيب وجهه ويده فزاده إقداماً واقتراًساً . ويبد ثابتة ذهبت عنها كل رعشة وزايلها كل خوف حزّ الرجل عنق المسكينة التي حاولت أن تتخلص بكل ما فيها من قوة اليأس . لكن أباه كان أشد منها يأساً . وبعد ما انفصل الرأس عن الجسم لذّ لهذا المخلوق المفترس أن يشوه ذلك الرأس وذلك الجسم وما يزال دمهما حاراً تتفجر به شرايين تلك الضحية التي أرداها الجمال والهوى . وخرج الرجل بعد جريمته مؤمناً بأنه أدى فرضاً واجباً عليه أدأؤه . لذلك ظل هادئ النفس مطمئناً . فلما سئل أمام القضاء لم يتردد في الاعتراف بأنه قتل . ونال من إشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على أمره أن أعفاه وبرأه .

ولم يطل به المقام بعد ذلك في قريته . فقد بدأ بعد أشهر من عودته تنتابه أطوار غريبة . كان ينقطع إلى خلوة في بعض اللزارع البعيدة أحياناً ، ثم يعود إلى معاشرة الناس أخرى ، فيراه الناس ذاهلاً تارة ، هائماً تارة ، وقد ازداد أكثرهم إيماناً بورعه وبتقواه بعد الذي رأوا عليه من هذه الأعراض ، وآمنوا به وإيا صالحاً . لكن مدة ولايته لم تطل بعد ما اقترن هياجه بالاعتداء على الناس . فقد نقل إلى مستشفى المجاذيب وهو ما يزال إلى اليوم فيه . وإنك لترثي لحاله حين

تراه في ساعة مسكونه يذرف الدمع سخينا على ابنته التي قتل وزوجته
التي اتهم ، ويضرع إلى الله أن يبعث إلى قلب رجل من الخنان عليه
والبر به فيورده حثفه ويضع حداً لآلامه ...

خاتمة في الأدب والحضارة

كنت مشغولاً بقراءة الأدب العربي القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف إلى أيام كنت طالباً بالقسم الثانوى وحين كنت ألتقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب ، وحفظت عن ظهر قلب ما حجب إلى نفسى مدخله . فلما كنت فى السنة الأخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها أقرأ كتباً فى الأدب الإنكليزى وفى الفلسفة الإنكليزية ، ككتاب الأبطال لكارليل ، والحرية لجون ستوارت مل ، والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . إذ ذاك انفسح أمامى من عوامل التفكير ما لم تمهد إليه مطالعاتى العربية . وسافرت من بعد ذلك إلى باريس ، وجعلت أدرس اللغة الفرنسية ، وأتصل بأدبها ، فأخذ إليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء إليها هوى مغرم بها . فأمنت فى قراءة هذا الأدب ، وجعلت أحضر من دروسه مثلاً كنت أحضر من دروس الحقوق التى كانت مقصدي من سفرى لنيل إجازة الدكتوراه فيها . ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناي من جمال البيئة المحيطة بى إلى الإعجاب غاية الإعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبني من هذا الأدب روح الثورة الذى يبدو فيه دائماً الضرام ، وحيوية متوقدة لا تخبو نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة

الأدبية في كل صور الأدب سواء . فالقصة والأقصوصة والرواية المسرحية وكتب الأدب والفلسفة، تتم كلها عما تضطرم به أرواح كتابها من نشاط دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو كذلك في الكاتب الواحد، وهو أشد من ذلك في الجيل يعقب الجيل . فالشعر الكلاسيك لراسين وغيره لكورنى ، وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان . وشعر معاصرها مولير في مهازله ومآسيه ثورة عليهما لأنه ثورة على القديم ، بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب القرن السابع عشر . والقرن التاسع عشر ينسج في أدبه كما ينسج في علمه وفلسفته على طرائق هي الثورة على القرنين اللذين سبقاه جميعاً . وفي كل قرن تتطاحن في الأدب مذاهب وتقتل آراء ، وتقوم بين الأدب والعلم وبين الأدب والفن وبين الأدب والفلسفة ثورات لا يهدأ أوارها . وهذا النشاط المتصل وهذه الثورة الدائمة الضرام هما خير ما يقنعك بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملاً ، فكرة تسبق العمل وتوجهه سبيله . والحياة في هذه الصورة هي الحضارة الحية القوية التي استلهمت الفن والعلم والأدب وألهمتها ، فكانت حضارة العلم والفن والأدب . وكان الأدب من العلم والفن هو الصدى الناطق للحالات النفسية التي يعبر عنها الفن ، وهو الفن البديع الاتساق الذي يكسو بآياته قواعد العلم روعة وجمالاً .

ومن أشد ما يلفت النظر في هذا الأدب الفرنسى وما يشترك معه فيه أدب الغرب كله ، دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ، وبين العلم من ناحية أخرى . فقل أن تجد كاتباً من كبار الكتاب لم يعرض في واحد أو أكثر من كتبه لمسألة العقيدة أو للمسيحية ، سواء عرض

لهذه أو تلك بما يملأ قلبه من جلال الإيمان أو من الثورة على العقيدة أو الدين . فالفردوس المفقود للمتن في الأدب الإنكليزي ، والجحيم لدانت في الأدب الإيطالي ، وكتب روسو وفلتيير في الأدب الفرنسي ، هذه وغيرها كلها آثار خالدة في الأدب الديني وفي الأدب المناهض للعقيدة وللدين . وهذه الكتب كلها ، سواء منها الديني والمناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التي أشرنا إليها . وليس في ذلك من عجب ؛ فقد كان البعث الأوربي في القرن السادس عشر ثورة من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة على هؤلاء ، ومحاولات عنيفة لتقويض عمد الكنيسة كلها . وإنما كان ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة الديني والزمني . فلما بدأت حركة البعث بدأت متمردة من جانب رجال الدين على زملائهم ؛ لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الإنسانية ، كانت محصورة أو تكاد في رجال الدين ، وكان واجباً على من سواهم أن يخضع لهم أو يطرد من الكنيسة ، ويكون جزاؤه التعذيب والنكال أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر ديكارت كتابه « عن الطريقة » ، وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا الكنيسة ، وخطا العلم خطواته القوية ، كان النزاع على أشده ، حتى كان إنكار سلطان الكنيسة بعض ما نادى به الثورة الفرنسية ، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا في أوائل هذا القرن الثم العشرين . فلا عجب إذن أن يتأثر الأدب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله ، وأن

يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة في هذا النضال العنيف الذي قام في الغرب ، والذي عاد اليوم يضطرب في مختلف الدول خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة. كان هذا الخوف بعيداً عن الأذهان في عهد الأدب الكبير الذي أشرنا في تقديم هذا الكتاب إليه . لذلك لم يفتن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم في أوربا إلى الأسباب التي أدت بالأدب الغربي إلى أن يطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة ، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية ، مما أدى بأوجست كومت إلى أن يقرر قانونه عن الحالات الإنسانية الثلاث — التولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية — على أنها الحالات التي يمر بها عقل الجماعات البشرية، وكأنها لا يمكن أن تتجاوز أو تتصل. وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الإنسانية وما إليهما من مثلهما ، مما وضع روسو وكومت ، بيرجن ومدرسته إلى وضع فلسفة «البرجماتية» أو الإلهام . وبهذه المذاهب تأثر الأدب الغربي تأثراً له علة ؛ لأن الأدب في اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة وبالحياة المادية . والمصريون والشرقيون الذين لم يفتنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والعلم والفلسفة والأدب في الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ، هؤلاء وأولئك خيل إليهم أنهم قد يرون على نقل صور الأدب الغربي إلى الشرق كما هي . فخيّل إليهم أن في الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى إليه النضال بين الدولة والكنيسة في الغرب يجب أن يبدوا عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة في الشرق . وخيّل إليهم أنه يجب الفصل بين

الكنيسة والدولة على نحو ما حدث في فرنسا . وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة . لكننى إذ فكرت وفكرت ، رأيت تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب ، ورأيت الحضارة الإسلامية لا تعرف شيئاً اسمه الكنيسة ؛ لأن الإسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين ، وإنما يقرر : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ولست أدرى : أفطن الغرب إلى ما لمركزه السياسى فى الشرق من مصلحة فى قيام هذه الحركة الجديدة التى سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوربية « تغريب الشرق » ، أم قد خيل إليه أن حياة الشرق كحياة الغرب ، وأن رسالة الغرب التى ألقها الحضارة على عاتقه إنما تكون بهذا « التغريب » للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه .

ولا أحسبني أمل القارىء إذا أنا كررت فى هذه الخاتمة ما قدمت فى فصول الأدب القومى وفى أكثر فصول هذا الكتاب من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون باحياًها من سبيل بحثها على الطرائق الحديثة لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد فى جمودها وتكلسها تكلساً يحاول أبنائها إزالته عنها . وهذا الإحياء إنما يكون بتعاون العلم والأدب : العلم الذى ينقب ويمحس ويحلو الغامض ، والأدب الذى يلقى الضياء الشفاف على ما يكشف العلم عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والأسلوب الممتلىء بذاتية صاحبه وبحياته . سنكون مدينين فى هذا الإحياء لطرائق العلم الغربية الحديثة ، ويجب علينا لذلك أن نقر لهذه الطرائق بالفضل . لكننى أحسبني لا أغلو إذا أنا ذكرت أنا إذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد

في علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة وقد تتفق على الأقل معها . وقد اتفق لى أن كنت أطلع في كتاب بالإنجليزية عن تاريخ الكيمياء ، فكانت دهشتي عظيمة وأنا أقرأ في تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه . فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله ، كان مما آمن به العرب في علمهم إيمان الغرب به في علمه . وأذكر أن هذه النصوص العربية ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري ، على حين لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا في القرون الأخيرة . على أنه يجب على أن أعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتي العربية لم يهدني إلى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب الواقعي « البوزتفزم » . ومع ما يجد الإنسان في مذاهب الفلسفة العربية من التشكك واللا أدرية والإلحاد فإنه ، في حدود ما قرأت ، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية . أفرجع ذلك إلى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تفريقاً وقف العلم موقف الخصومة من الدين ، على حين لم يكن من ذلك شيء في تاريخ الحضارة الإسلامية ؟ قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة في القرآن أم مخلوق هو أم مخلوق موضع رعايته وعطفه . وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها في أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ، ويختلف بعضها مع بعض ، بل يختلف التلاميذ مع الأئمة ، كاختلاف

أبي يوسف ومحمد مع أبي حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة في شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الديني كانت تقوم ، وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جليلة الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب إلى ماصارت إليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والأندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحرركاتها سلكت سبيلاً تختلف اختلافاً جوهرياً عما سلكت المسيحية وكنائسها .

إذا أردنا إحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب ، فلا مفر لنا من إحياء هذه التطورات وتاريخها ، ومن شق الطريق في غيابات الماضي الخفي اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعاً ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضي والروح الذي كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا القومي في مصر ، وروحنا المصري في اتصاله بفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التي اتصلنا بها وخضعت وإيانا في أية حقبة من حقبة التاريخ لمصير مشترك . لتكن الحضارة التي تقوم على أساس هذا الإحياء حضارة إسلامية كما أعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد البعض ، أو حضارة شرقية متصلة بحضارة فارس والهند ؛ كل ذلك قليل الأثر عند من يريد إحياء هذه الحضارة العظيمة ، ولا يريد التلاعب بالألفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربي من أن يساهم بنصيب عظيم في هذا الإحياء ، ولا مفر له من أن يوجه ؛ فكثيراً ما يسبق الأدب العلم في بعث الحضارات . وقد لا يخطئ كثيراً من يقول إن الأدب

كان دائماً أسبق من العلم في هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوماً ما
 مذهباً منطقياً يقيمه العقل وحده ، وإنما هي مجموع مطامح الحياة إلى
 المثل الأعلى الذي ترجو الجماعة بلوغه ، وهي إلى جانب ذلك تصور
 الجماعة الانسانية لصلتها بالوجود في مجموعه صلة تنتسب للماضى وتنفذ
 إلى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة
 بالوجود ، هذه كلها تتمزج بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من
 الإيمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضى وبمختلف
 عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر « ما لا يمكن معرفته » ،
 وما يدخل بعضه الآخر في دائرة الإلهام العريق النسب بالأدب
 والمحتاج إلى زمن لا يعرف أحد مداه ليكون أوثق بالعلم نسباً . وأنت
 فارجع في تحقيق ذلك إلى مختلف الحضارات التي تعرف : ارجع إلى
 الحضارة اليونانية وإلى الحضارة الإسلامية وإلى الحضارة الغربية الحديثة ،
 تجد الأدب كان دائماً سابقاً إلى اقتحام الميادين التي هيأت لهذه الحضارات
 بروزها ، وإلى شق السبل التي يسرت بلوغ الحضارات هذه الميادين .
 وقد ظل ذلك شأن الأدب في صلته بتلك الحضارات أجيالاً متعاقبة حتى
 جاء العلم بخطاه البطيئة الأكيدة يستصفي من هذه السبل ومن هذه
 الميادين خلاصة القوانين العامة التي توجه الانسانية وتوجه الحياة .
 وإذا كان العلم قد نفى في كثير من الأحيان ما أثبت الأدب ، فقد ظل
 ما نفى العلم من آثار الأدب متوقداً ملتهباً يصهر في بوتقة العلم حتى أطفأ
 العلم شعلته . فإذا قيل بعد ذلك إن هذا الأدب قد قضى العلم عليه ، فهو
 إنما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة
 الأدب . وهو من بعد إنما يخضع في ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له

العلم نفسه . فكثيراً ما أثبت العلم في عصر من العصور قواعد وقوانين ثم جاء العلم في عصر آخر فخطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين .

ليقتحم أدبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضي بأدوات البحث الأدبي وبأساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً طليقاً غير هياب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الأدب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، وروح الثورة التي اقتحم بها الأدب العربي تراث فارس ومصر واليونان . وليقلب في هذا الماضي ما شاء له التقلب والتنقيب بروح النقد والتجسس والحرص على الحق لوجه الحق وحده ، الحق في أسمى صورته التي تلمس الإنسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الانسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح ، الحق الذي تقوم الحضارات على أساسه والذي يدعمه الأدب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتاب ، هو الحق في صلة الانسان بالوجود كله : بهذه الأفلاك التي نرى ، وبهذه السماوات التي تغمرها ، وبالروح الفياض بالضياء ، والذي يحيط بذلك كله ويبعث إليه الحياة والنور ، هذا الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه .

وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعاً ، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل أدب يطمح في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية المجد والسعادة .

الأدب الذي يسمو بالنفس إلى هذه المعاني العليا ، والذي يرتفع بها

لتتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذى تعنوا له الحياة والذى تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذى يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه فى ماضينا : فى هذا الأمس العظيم الذى يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعاً ، والذى يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد .

أترى آن الوقت الذى يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد ؟ بذلك أناديه ، فهل بلغت النداء ؟ . . .

« انتهى »

مطبعة مصر ٢٣٩٦/٤٨/٣٠٠٠

فهرس

صفحة

٥		تقديم
١٦		للطغاة وحرية القلم
٢٥		ثقافة الأديب
٣٧		اللغة والأدب
٤٦		للنثر والشعر
٥٨		علة الشعر
٧٢		فن القصص
٨٤		سبب فتور القصص
١٠٤		التأليف المسرحي
١١٣		الأدب القومي
١٣١		التاريخ والأدب القومي
١٤٤		محاولات في الأدب القومي
١٥٢		إيزيس
١٦٩		راعية هاتور
١٨٦		أفروديت
٢٠١		حكم الهوى
٢١٩		الشيخ حسن
٢٣٣		خاتمة في الأدب والحضارة

DATE DUE

19 DEC 1998

Circulation Dept. 5



هيكل، محمد حسين

ثورة الادب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033336

892.704
H411EA

